

مكتبة الكتب المسيحية

الموقع القديم

http://coptic-books.blogspot.com

الموقع الجديد :

http://www.christianlib.com

انضم لجروب ماذا تقرأ هذه الأيام (النسخة المسيحية) ؟

https://www.facebook.com/groups/530822643657367

انضم لصفحة : مكتبة الكتب المسيحية :

https://www.facebook.com/copticbooks4u/

christianlib.com

شهيد السراديب



coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

شرح صورة وجه الغلاف

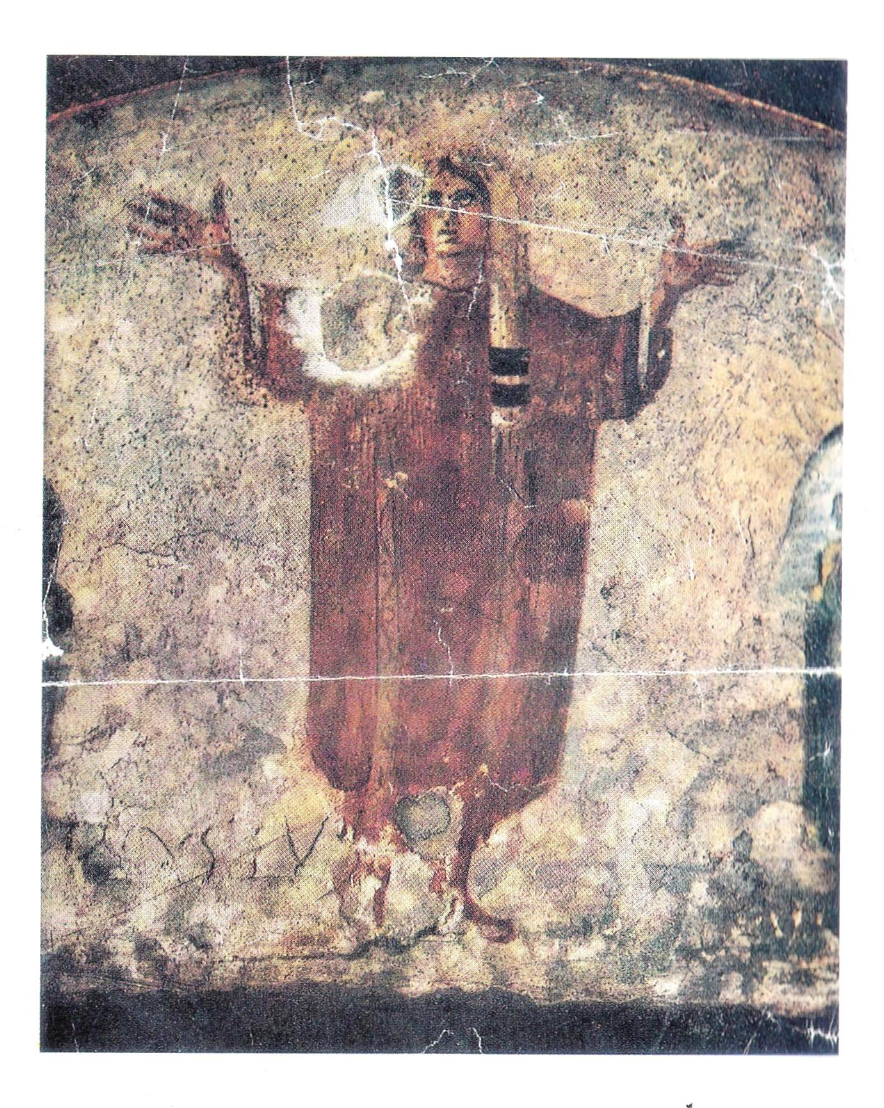
رسم على جدران أحد سراديب روما

يمثِّل المسيح الراعي الصالح يحمل الخراف ويقودها.

أحد الرموز التي أحبها شهداء السراديب في القرنين الأول والثاني، والتي كانت تمثِّل إيمانهم الشديد بعناية المسيح الراعي الصالح بهم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



شهيد يصلّي: رسم حائطي من القرن الثالث موجود على جدران سراديب روما.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



ظر داخلي لسراديب
قديس سبستيان
وما.

سراديب القديس سباستيان – المداخل الثلاثة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

شهيد السراديب

قصة عن روما القديمة وشهدائها المسيحيين

دار مجلة مرقس

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كتاب: **شهيد السراديب**

ترجمة وإعداد: **رهبان دير القديس أنبا مقار.**

الناشر: **دار مجلة مرقس.**

الطبعة الأُولى: **١٩٩٤**

الطبعة الثانية: **٢٠٠٠**

الطبعة الثالثة: **٢٠١٠**

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون

ص.ب ٢٧٨٠ - القاهرة.

نُشر الفصل الثاني عشر والفصل الثالث عشر من هذا الكتاب في عدد مجلة مرقس الصادر في سبتمبر سنة ١٩٨٦. والكتاب مترجم عن:

"The Martyr of the Catacombs",
Moody Press, Chicago.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **٩٤/٢٣٨١**

رقم الإيداع الدولي: **I.S.B.N. 977-5545-00-5**

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المحتويات

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مقدمة

هـذه قصـة لمؤلـف مجهـول الاسـم وعنوانهـا «شـهيد السـراديب»[1] وهي قصة عن رومـا القديمـة. وقـد نُشـرت منـذ سـنوات طويلـة جداً. وقـد تم إنقـاذ النسـخة الوحيـدة الباقيـة مـن هـذه القصـة مـن مركـب أمريكيـة كـان يقودهـا الكـابتن ريتشـارد روبـرت غرقـت في البحـر نتيجـة إعصـار هـائل في ينـاير عـام ١٨٧٦. ويمتلـك ابنـه حاليـاً (وقـت نشـر هـذا الكتـاب بالإنجليزيـة) هـذه النسـخة.

وهـذا الكتـاب الـذي نقدِّمـه، والـذي يحمـل نفس العنوان هـو عبـارة عـن طبعـة مـن نفس الكتـاب القديـم، وقـد تمَّ إخراجـه الآن علـى أمـل أن يُصـوِّر بطريقـة حيَّـة أمـام المخلِصِين والجـادِّين وأمـام اللاهـين والجُهَّـال مـن المؤمنـين وأبنـائهم، في هـذه الأيـام الأخيرة الشريرة، يُصوِّر مقدار مـا تحمَّلـه القديسـون الأوائـل في سـبيل محبتهـم للملـك المسيح، وذلـك في عصرٍ تميَّز بأقسـى عصـور الاضطهاد في رومـا الوثنيـة، والـذي نؤمـن أنـه سـوف يتكـرر وبصـورة شيطانية أقسـى في المستقبل. ولعـل هـذا يُذكِّرُنـا جميعـاً أنـه إذا تـأخر الـرب في المجيء مـن السماء، فإننا قـد نُدعـى للتـألُّم مـن أجلـه.

(عن مقدمة الكتاب)

---

(١) (The Catacombs) سـراديب كـان يُدفـن فيهـا الموتـى وهـي تحـت الأرض وكـانت لهـا مداخـل عديـدة وهـي متشـعبة وطويلـة وكـانت تمتـد تحـت مدينـة رومـا وعـاش فيهـا المسيحيون في زمـان الاضطهـاد الرومـاني في القـرون الثلاثـة الأُولى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ما هي السراديب

لقد كانت السراديب في حياة الكنيسة - إبَّان عصر الاستشهاد - تمثل ركناً مهماً في الحياة الروحية التي عاشها المسيحيون الأوائل. كانت هذه السراديب تُستخدم أصلاً كمدافن تحت الأرض أو في أعماق الجبال. بدأ استعمالها كمدافن يودع فيها المسيحيون رفات شهدائهم وموتاهم. وقد بدأ انتشارها في روما ثم انتقلت فكرتها إلى نابولي ومالطة وسيسليا (صقلية) والإسكندرية وباقي مدن الإمبراطورية الرومانية.

إلاَّ أن استعمالها لم يقتصر على ذلك فقط، بل تعداها إلى اعتبارها ملجأ للمسيحيين الذين كانت السلطات الوثنية تطاردهم ... ثم كأماكن مقدَّسة للعبادة الجمهورية وسط رفات الشهداء وأجسادهم الطاهرة ... أماكن مناسبة يمكن أن يتنسَّموا فيها، لا رائحة الموت، بل رائحة الأبدية والخلود ... وكمجال خصب يشتاقون فيه إلى الحياة الأخرى الباقية إلى الأبد.

لقد أُنشيء بعض هذه السراديب منذ عصر الرسل، ولكن معظمها أُنشيء خلال الأجيال التي تلت العصر الرسولي حتى القرن الثالث حين تملَّك قسطنطين الملك وأعلن المسيحية ديانة مسموحاً بها بعد أن كانت محرَّمة، وأمر ببناء الكاتدرائيات الشامخة ذات القباب والمنارات العالية ... فأضعف بهذا من حيث لا يدري روح المسيحية الأُولى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المناضلة التي ترعرعت وازدهرت من تحت نير الصليب في مواجهة الموت ووسط ظلمة السراديب المؤدية إلى أنوار الحياة الأبدية ...

وصف السراديب:

كانت هذه السراديب عبارة عن ممرات ضيقة، ولكن طويلة، تتقاطع مع بعضها البعض. يخيِّم عليها الظلام الدامس إلاَّ من شعاع واحد خافت قد يتسرَّب من فتحة هنا أو من فتحة هناك في سقف السرداب. يجتمع فيها المسيحيون بعيداً عن أنظار الناس، يؤدون فيها صلواتهم وقدَّاساتهم على أضواء الشموع الخافتة ووسط سكون شامل رائع.

كانت جدران السراديب مغطاة بالصور والنقوش والرموز التي وإن اتسمت بالبساطة والسذاجة في الفن إلاَّ أنها كانت مفعمة بالمعاني السامية العميقة التي طالما عبَّرت عن حقيقة الحياة المسيحية الأصيلة التي عاشها الشهداء، والتي استطاعت أن تصمد وتنمو في مواجهة الطغيان الوثني الذي كان يضغط بشدة على الكنيسة في القرون الأُولى.

هلُمَّ نمعن النظر في هذه الرسوم وتلك الكتابات ... لنعرف روح هؤلاء الشهداء ...

الكتابات:

لقد تميَّزت الكتابات التي خلَّفها الشهداء على جدران كهوفهم فحوى التعليم الذي تركه بولس الرسول لدى التسالونيكيين وأوصاهم فيه أن لا يحزنوا كالباقين (الذين هم الوثنيون) الذين لا رجاء لهم، بل بأن يتذكَّروا جيداً: أنه كما قام الرب يسوع من الأموات، هكذا فإن كل الذين رقدوا في الرب سيقيمهم الله أيضاً معه. لذا كانت كتابات

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الشهداء متسمة بالرجاء والفرح الذي يغمر أفئدتهم، فالموت عندهم ليس سوى نوم قصير الأمد، فالنفس مع عريسها تحيا في الله، والجسد في القبر ينتظر القيامة السعيدة ... فكثيراً ما كتبوا هذه الكلمات الخالدة: «رقد في سلام» ... «حيٌّ في الله» ... «حيٌّ إلى الأبد» ... «لا تبكِ يا بُني فالموت ليس أبدياً» ... «إن ألكسندر لم يمت، بل هو حيٌّ في السماء وإن كان جسده قابعاً في القبر».

بل إن بعض المسيحيين ـ وهذا ما يسترعي انتباهنا ـ كتبوا بجوار أجساد موتاهم توسلات إلى أرواحهم لكي يتشفَّعوا من أجلهم في السماء وهم أمام المسيح.

ولكن الأمر المدهش هو أن هؤلاء المؤمنين بالحياة الأبدية، كانوا عاملين مجتهدين في المجتمع مساهمين في حياة وطنهم. وقد عرفنا هذا مما سجلوه – أيضاً – عن جهادهم من أجل وطنهم الأرضي ... فهذا نجّار يرسم على اللوحة المعلَّقة على قبره مجموعة من أدوات النجارة التي كان يستعملها. وبعد موته تطوع أحد النحَّاتين من أقاربه بكتابة هذه الكلمات تحت الصورة:

«باوتوس وماكسيما. لقد صنعا هذه الأدوات

أثناء حياتهما على الأرض».

الرسوم:

أمَّا الرسوم فقد كان أهمها الرموز التي كانت تشير إلى الرب يسوع المسيح، وهي الراعي الصالح، والسمكة، والكرمة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لقد كانت هذه الرموز تعبِّر عن بساطة المسيحيين الطفولية النادرة، وتؤثِّر فيهم. كانت بمثابة دساتير إيمان تحدد لهم المبادىء الأساسية لإيمان كل مسيحي بالمسيح كمخلِّص وكمعزٍّ، إن في الحياة أو في الممات.

الراعي الصالح:

فالراعي الصالح كان يعبَّر عنه في هذه الرسوم كرجل لطيف بلا لحية حديث السن في لباس منير بزنار وصندل ومزمار وعصا، يحمل الخروف على منكبيه وحوله خروفان آخران أو أكثر ينظران إليه في ثقة واطمئنان. وقد يصوَّر في موقف الذي يطعم خرافه من المراعي الخضراء ...

وهنا يبدو إيمان المسيحي من نحو المسيح، باذلاً نفسه عن الخراف، ومعطياً الخيرات لكل نفس، إنها الصورة الكاملة للمخلِّص.

نقف هنيهة عند هذا الرمز الجميل.

لقد كتب أحد المؤرخين الحديثين يقول:

[تُرى ماذا كانت العقيدة الشائعة لدى المسيحيين الأوائل؟ لقد كانت - في كلمتين وحيدتين - هي عقيدة «الراعي الصالح» ... لقد كان حنان الراعي، وشجاعته، ونعمته، وحبه، وجماله، هو كتاب صلواتهم ودستور إيمانهم وقانون كنيستهم، متركزاً في شخص الرب. لقد كانوا يتطلعون - دوماً - إلى هذا الرمز، فينقل إليهم كل ما يشتهون.

ولكن بمرور الزمن غابت صورة الراعي الصالح عن ذهن الكنيسة وأخذت تقفز مكانها شعارات أخرى. فبدلاً من صورة الراعي الحنون الطيب القلب، أصبحت صورة الإله الديَّان، أو المصلوب المتألِّم، أو الطفل المستلقي على ذراعي أمه، أو الرب

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في حفل عشائه الأخير، أو جمهور الملائكة والقديسين، أو التعبير المتقن عن القضايا اللاهوتية العويصة].

السمكة:

أمَّا السمكة، فهي تعبِّر تحت شكل آخر عن نفس فكرة الخلاص، ولكن للذين يعرفون اللغة اليونانية. فكلمة (أيخثيس) كلمة يونانية معناها سمكة، إلاَّ أن حروفها اليونانية تشكِّل الحروف الأُولى من الكلمات اليونانية التي تعني: «يسوع المسيح ابن الله المخلِّص».

وكانت السمكة في بعض الصور، تبدو وهي تسبَح في المياه، مع طبق يحوي خبزاً وكأسٍ تحوي خمراً إشارة إلى سرِّ العشاء الرباني.

وكان المتأمل في السمكة يتذكَّر المفديين أيضاً، فهي ترمز إلى النفس التي اصطادها صيَّاد البشر الماهر بشبكته الإلهية المباركة. ويشبِّه ترتليانس (أحد الكتَّاب المسيحيين المشهورين في عصر الاستشهاد) المياه التي تسبَح فيها السمكة، بمياه المعمودية، ويقول:

[إننا نحن السمكات الصغار قد وُلِدنا من السمكة الكبيرة (التي هي المسيح). ويمكننا أن ننجو إن بقينا دائماً في تلك المياه.]

أي إذا صرنا أُمناء لعهد معموديتنا واحتفظنا بالنعمة التي نلناها في المعمودية.

الكرمة:

أمَّا الكرمة فقد كانت ترمز إلى الوحدة السرية بين المؤمن وبين المسيح وإلى الوحدة الروحية بين المؤمنين وبعضهم البعض ... وكانت تعبِّر عن كأس الشركة التي يباركها الكاهن في القدَّاس الإلهي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كما عثر في هذه السراديب على أدوات تدل على وجود حياة طبيعية في الماضي. مثل مصابيح وأوعية من الطين المحروق، وأوعية زجاجية (أقداح وكؤوس وأكواب ذات نقوش على مثال المشغولات الذهبية)، ودُمَيّ من العظام، وخواتم معدنية وحجرية ربما كانت لوضعها في الأصابع.

هذه هي الأجواء التي عاش فيها آباؤنا الشهداء على مدى ما يقرب من مائتي عام أو يزيد، وعانوا من الآلام والأمراض ليوصلوا لنا الإيمان المسيحي الثمين.

هذا هو الواقع:

إن المؤرخين المدققين والباحثين الأمناء كلهم يؤكدون أنه ليس هناك ثمة تناقض بين ما أظهرته الآثار والرسوم من معانٍ روحية سامية، وبين حقيقة الحياة التي عاشها فعلاً المسيحيون الأوائل أي أن الرسوم والرموز التي ازدانت بها جدران الكهوف لم تكن تعبيراً عن خصوبة خيال فنان لا يمتُّ إلى واقع حياة آلاف المسيحيين بصلة. بل كانت تعبيراً متقناً عن حياة حقيقية عاشها هؤلاء الأبطال الصناديد. كل منهما (الفن والحياة) يعبر عن الآخر ويصوره.

فكل من الفن والرسوم على الجدران والحياة الحقيقية التي عاشها رواد هذه السراديب تعرض لنا واقع المسيحية الرسولية والآبائية حتى القرن السابع: مسيحية المعترفين والشهداء؛ البسيطة المتواضعة غير المدعية غير المتفلسفة غير المتعلِّمة، القوية في مماتها وفي رجائها بالقيامة السعيدة، المتحررة من قيود الكلمات المحفوظة وتعقيدات علم اللاهوت الحديث؛ كل هذا في حب شديد للرمزية والنسك والعبادة والبذل الكامل حبًّا في المسيح.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الأول

الكوليزيوم ساحة الاستشهاد

(The Coliseum)

كان هذا يوم أحد الاحتفالات العظيمة في مدينة روما، وكان عدد كبير من الناس يأتون من مختلف الأماكن ويتجهون كلهم إلى وجهة واحدة، عبر الساحة الرئيسية، إلى تل الكابيتول وذلك فيما وراء معبد السلام وقوس تيطس والقصر الإمبراطوري. وكانوا يسيرون عبر ذلك حتى يصلوا إلى الكوليزيوم، وهناك يدخلون من أبوابه المائة ويختفون بداخله.

وإنك ترى في الداخل منظراً رائعاً: فهناك من تحت تنبسط ساحة المصارعة وهي محاطة بصفوف لا تُحصى من المدرَّجات التي ترتفع تدريجياً إلى أعلى حتى تصل إلى الحائط الخارجي بارتفاع مائة قدم. والمشهد كله مغطًّى بأُناس من مختلف الطبقات الاجتماعية ومن مختلف الأعمار. حشد هائل من الناس، يبدو للناظر إليه صفوفاً طويلة من الوجوه الجامدة ترتفع إلى أعلى في صفوف متتالية.

وكان ذلك يكوِّن مشهداً يخطف نفس المشاهد، مشهد لا يماثله منظر آخر: أكثر من مائة ألف تجمَّعوا في مكان واحد ويحركهم شعور واحد وتدفعهم شهوة واحدة وهي شهوة رؤية الدم التي جذبتهم إلى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

هذا المكان.

ولا نجد تعبيراً أشد حزناً على ما وصلت إليه حضارة روما القديمة المتكبِّرة أكثر من هذا المنظر، والذي يعتبرونه أروع مناظرها. فهنا تجد محاربين قد حاربوا في الحرب الخارجية وهم معتادون على أداء أعمال البطولة والشجاعة، ولكنهم لا يجدون أية غضاضة في المشاهد التي تُعرض أمامهم. ونُبلاء من عائلات عريقة، ولكنهم لا يرون في هذه المناظر الوحشية أية وصمة عار على شرف بلادهم. وتجد هنا أيضاً فلاسفة وشعراء وكهنة وحُكّاماً.

أرقى الطبقات وأدناها في المدينة، تزاحموا معاً على هذه المقاعد، وإنك لتسمع صرخات العظماء كما تسمع أيضاً صرخات العامة.

- أي رجاء لروما إذا كانت قلوب أبنائها قد استسلمت للقسوة وللمشاهد الوحشية؟

وهناك على كرسي مرتفع جلس الإمبراطور ديسيوس (Decius) في مكان ظاهر من المدرَّج. وحوله جلس عظماء الرومان، ومن بين هؤلاء كان يوجد جماعة من ضباط الحرس الإمبراطوري المسمَّى «البرايتوريوم» (Praetorian guard). وكانت هذه الجماعة محط الأنظار بسبب ضحكاتهم المرتفعة ومرحهم ومنظرهم المُبهر.

وبدأ الاحتفال وقُدِّمت عدة مشاهد أولية للمصارعة، وكان أغلبها ينتهي بالقتل؛ وتختلف فيها درجة الإثارة والمُتعة باختلاف شجاعة ومهارة المتقاتلين. وكان هذا كفاتح لشهية المشاهدين وجذب انتباههم وإثارة رغبتهم لرؤية مشاهد أخرى أكثر إثارة سوف تليها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

واجتذب أحد المصارعين إعجاب الجماهير، وكان هذا أفريقياً أسمر من موريتانيا، وكان ذا قوام عملاق وقوة جبارة ويبدو أن خبرته كانت مساوية لقوته. وكان قد ثنى سيفه بطريقة فذّة، حتى إنه كان يذبح كل مَنْ يصارعه. والآن ها هو يدخل في مُصارعة مع مُصارع من باتافيا Batavia. وكان هذا المصارع يماثله تماماً في قامته وفي قوته، وكان التباين بينهما واضحاً جداً: الأفريقي أسمر اللون، شعره مجعَّد، وعيونه لامعة، والباتافي فاتح البشرة وشعره أشقر وعيونه رمادية.

وكان من الصعب التنبؤ لمن ستُكتبُ الغلبة، فقد كان الاثنان قريبين من بعضهما جداً من كافة النواحي، ولكن بما أن الإفريقي خاض عدَّة مُصارعات قبل ذلك، فقد كانت التوقعات في غير صالحه.

وبدأ القتال بينهما بروح عالية وحماس من الطرفين، وسدَّد الباتافي عدَّة ضربات ساحقة تفاداها الإفريقي بمهارة. وكان الأفريقي سريع الحركة وغاضباً، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ضد الدفاع البارد والحذِر من خصمه المتيقِّظ.

وبعد مدة طويلة أُعطيت إشارة وأُوقف الصراع، وسُحب المتصارعان إلى الخارج. لم يكن هذا بالطبع بسبب أي إحساس بالشفقة أو الرحمة أو حتى الإعجاب، ولكن لأن المنظِّم للمصارعة يعرف ما هي أحسن طريقة لإشباع رغبات الجموع الرومانية. ومن المفهوم طبعاً أنهم سوف يعيدونهم إلى الحلبة ثانية.

والآن أدخلوا إلى الحلبة عدداً كبيراً من الرجال المسلَّحين بنفس السيوف القصيرة، وفي لحظة بدأ قتال وحشي بينهم، ولم يكن هذا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

قتالاً بين جانبين متحاربين، ولكن كان معركة عامة كبيرة يهاجم فيها كل إنسان جاره. وكانت هذه أكثر المشاهد دموية وأكثرها إثارة، ويتسبب صراع من هذا النوع في قتل أكبر عدد في زمن قليل.

وصارت الحلبة مشهداً مروعاً مختلطاً:

خمسمائة رجل مسلَّحين في عزِّ شبابهم وقوتهم سيقاتلون بعضهم البعض بدون أي نظام، أحياناً يتشابكون كلهم في كتلة واحدة، وفي أحيان أُخرى يتفرقون بعنف إلى أفراد متناثرين في الحلبة، وقد خلَّفوا وراءهم كومة من الجثث في الوسط، ولكنهم يعودون ليقتلوا بعضهم بعضاً بعنف؛ وإنك لترى صراعات جانبية منفردة متفرقة في كل مكان، والمنتصرون في هذه الصراعات يدخلون في قتال جديد حتى يتجمع الأحياء منهم مرة أخرى في كتلة واحدة متصارعة.

ومع الوقت يضعف نضالهم، ويتبقَّى مائة فقط من خمسمائة، وهؤلاء المائة تعابى جداً ومجروحون. وفجأة تُعطَى إشارة، ويُدفع رجلان داخل الحلبة، يندفع كل منهما من جانب مضاد للآخر ويسيران إلى هذه الجماعة: إنهما الأفريقي والباتافي وقد استردا عافيتهما نتيجة للراحة التي أخذاها، وها هما يقعان على هذه الجماعة البائسة الذين لم تعُد لديهم لا القدرة على القتال ولا حتى على المقاومة. وتقوم مجزرة، ويَذبح هذان العملاقان كل مَنْ وجداهم يميناً ويساراً بدون رحمة، إلى أن يقفا مرة أخرى وحدهما في الحلبة، ثم ترن في آذانهما أصوات التهليل والإستحسان كالرعد.

ويقاتل هذان الاثنان بعضهما البعض بعد ذلك فيجذبان أنظار المشاهدين بينما تُرفع أجساد المجروحين والقتلى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



سراديب القديس
كاليستوس

سراديب القديسة دوميتيلا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



طريق أبيًّا: الذي كان يوجد تحته السراديب التي عاش فيها المسيحيون المضطهدون الأوائل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ويشتد القتال، الذي يصبح عنيفاً مثل المرة الأُولى: الأفريقي ثائر مُهاجمٌ؛ والباتافي حَذِر، ولكن أخيراً يندفع الأفريقي بطعنة يائسة، فيتجنبه الباتافي ويرد عليه بضربة مثل البرق. ويقفز الأفريقي إلى الخلف ويسقط سيفه ولكنه يتأخر جداً لأن ضربة خصمه اخترقت ذراعه الأيسر. وعندما سقط الأفريقي ارتفع صوت الهتاف من مائة ألف إنسان. ولكن لم تكن هذه هي النهاية، لأنه بينما كان المنتصر يقف فوق الضحية يجهز عليه نجد أن منظِّم المصارعة يقفز إليه ويجذبه بعيداً. ويعلم الرومانيون أيضاً أن هذا ليس بدافع الرحمة، ولكن لأن الضحية يجب أن يُحفَظ لصراع آخر!

– «إن الباتافي مصارع ماهر يا مرسيللوس!»

قال ذلك أحد الضبَّاط الشبان لرفيقه في الحرس الإمبراطوري البريتوري، الذي أجاب:

– «لا أعتقد أنني رأيت مصارعاً أعظم منه. وفي الحقيقة إن كلا الاثنين ممتازان».

– «إن عندهم مصارعاً آخر في الداخل أعتقد أنه أفضل منهم جميعاً».

– «آه، مَنْ هو؟»

– «إنه المصارع (ماسير) الذي أعتقد أنه أحسن ما رأيت».

– «وأنا سمعت عنه. هل تظن أنهم سيخرجونه إلينا اليوم؟»

– «أعتقد أني فهمت هذا!»

وقطع هذه المحادثة القصيرة التي جرت بين اثنين من الضباط الشبان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

صوت زئير عالٍ آتٍ من الفيفاريوم[٢]، حيث يضعون الوحوش المفترسة.

وكان هذا زئيراً قوياً وعالياً مثل الذي تطلقه الوحوش المفترسة عندما تكون في أقصى حالات الجوع والاهتياج.

ورُفعت الشبكة الحديدية الضخمة من فوق بواسطة الرجال بالحبال، وخرج نمر إلى الحلبة. وكان نمراً أفريقياً قد جلبوه منذ عدة أيام قليلة، وأبقوه ثلاثة أيام بدون طعام، وكان منظره مثيراً بسبب شدة هيجانه الذي زاده الجوع والحبس. وكان يسير حول الحلبة محرِّكاً ذيله ومحملقاً في المتفرجين بعيون ينبعث منها الشرر. وسرعان ما تحول اهتمام الجماهير إلى منظر آخر من الناحية الأخرى للحلبة، إذ دُفع إنسان إلى داخل الحلبة ولم يكن يلبس أيَّ درعٍ، بل كان عارياً مثل باقي المصارعين فيما عدا غطاء للحقوين، وكان يحمل في يده سيفه القصير. وتقدَّم هذا المصارع بخطوات واثقة إلى منتصف الحلبة. وتركزت كل العيون على هذا الإنسان وعلا صراخهم "ماسير، ماسير".

وسرعان ما رآه النمر، فأطلق صيحة وحشية قصيرة وتقدَّم إليه. ولكن ماسير وقف ثابتاً وعيناه مُثبَّتتان على الوحش الذي أخذ يهز ذيله بجنون أكثر من الأول، وأخيراً صاح النمر وقفز قفزة رهيبة مندفعاً مباشرة نحو ماسير.

ولكن ماسير كان مستعداً لذلك، وفي لمح البرق تجنَّب النمر إلى اليسار، وبينما النمر يسقط إلى الأرض عاجله بضربة سريعة مباشرة في

---

(٢) Vivarium مَرْبى للحيوانات تتوافر فيه خواص بيئتها الأصلية.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

القلب، إنها ضربة قاتلة.

وانتفض الوحش بأكمله من رأسه إلى أخمص قدميه، وأخذ يتشنَّج، وأطلق آخر صيحة له رنَّت كصوت مَنْ يحتضر، وسقط ميتاً على الرمل. ومرة أخرى ارتفع صوت استحسان الجماهير مثل الرعد:

– «رائع»، صرخ مارسيللوس، «أنا لم أرَ في حياتي مهارة مثل مهارة ماسير».

– «بدون شك فإنه طول عمره كان مقاتلاً»، هكذا قال زميله.

ورُفعت جثة النمر حالاً، وسُمع صوت ارتفاع الشبكة الحديدية ثانية، واتجهت الأنظار وفي هذه المرة خرج أسد، وأخذ يدور ببطء وكان ينظر حوله إلى كل الحلبة وكأنه في دهشة من المنظر.

كان هذا الأسد أكبر واحد من نوعه، كان عملاقاً في حجمه، وكانوا يحفظونه لملاقاة مَنْ هو كفؤ له. وكان يبدو أنه قادر أن يقاتل في وقت واحد حيوانين مثل النمر الذي سبقه، وكان ماسير يبدو بجواره كطفل. وكان الأسد صائماً لمدة طويلة، ولكنه لم يُظهر أي اهتياج كالنمر، بل كان يسير حول الحلبة. وكأنه يبحث عن منفذ للهرب ولكنه وجد كل الجوانب مسدودة، فعاد إلى منتصف الحلبة وأخذ يهز رأسه تجاه الأرض. وكان ماسير واقفاً بدون حركة، لم تتحرك عضلة واحدة في وجهه، وكان رأسه ثابتاً بنفس الوضع اليقظ المترقب وسيفه في يده.

وقف الرجل أمام الوحش وجهاً لوجه، وكلاهما ينظران إلى بعضهما البعض، ولكن يبدو أن نظرات الرجل الهادئة ملأت الوحش

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بالغضب. ورجع الوحش قليلاً إلى الوراء وقد وقف شعره وذيله، وزأر، واندفع في قفزته المميتة. ووقف الجمهور كله صامتاً بلا لغط، فهنا في الحقيقة منظر يستحق الانتباه. منظر الأسد الضخم مندفعاً إلى الأمام.

ولكن مرة أخرى نرى منظر المصارع وقد قفز جانباً وضرب الأسد بسيفه، ولكن هذه المرة أصاب السيف ضلعاً من ضلوع الأسد، وسقط السيف من يد ماسير، وكان جرح الأسد طفيفاً ولكنه زاد في اهتياجه إلى أقصى درجة.

ولكن ماسير لم يفقد ثباته وبرودة أعصابه في هذه اللحظة الرهيبة، بل وقف أمام الوحش بدون أي سلاح ينتظر هجومه؛ ومرة تلو الأخرى يقفز الأسد ويتفاداه ماسير الذي كان يتحرك تحركات واعية وذكية ليقترب من المكان الذي سقط فيه سيفه، وأخيراً استطاع الحصول عليه. والآن وقد تسلَّح بسيفه مرة أخرى، ووقف ينتظر القفزة النهائية من الأسد. وقفز الأسد ولكن هدف ماسير في هذه المرة كان سديداً فقد اخترق السيف قلب الأسد!

وسقط الوحش الهائل يتقلَّب في آلامه، ووقف مرة على قدميه، وجرى في الحلبة، وبزئير أخير سقط ميتاً بجوار القضبان الحديدية حيث دخل. وسحبوا ماسير خارجاً ودخل الباتافي . وذلك لأنهم يعلمون أن الرومانيين يحبون التغيير.

وأُطلق نمرٌ صغير على الباتافي الذي قتله.

وأُطلق عليه أسد، وكان الأسد قوياً وذلك بالرغم من حجمه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الصغير، ولكن كان من الواضح أن الباتافي كان غير كفء على الإطلاق مثل ماسير، وقفز الأسد مرة وجُرح، ولكنه في المرة الثانية تمكن من خصمه ومزقه إرباً إرباً وأدخلوا ماسير مرة أخرى ولكنه قتل الأسد بسهولة.

والآن بينما يقف ماسير في الوسط يتقبَّل تهليل الجماهير وهتافهم دخل من الناحية الأخرى رجل: إنه الأفريقي. وكان ذراعه المصاب معلَّقاً على جنبه، ولم يضمدوه، وكان مغطًّى بالدم.

وسار نحو ماسير بخطوات متألمة.

ويعلم الرومانيون أنهم دفعوه لكي يُقتل، وكان هذا الشقي يعلم ذلك أيضاً، لأنه بمجرد أن وصل إلى خصمه ألقى سيفه جانباً وتوسل إليه بيأس:

- «اقتلني بسرعة وخلِّصني من هذه الآلام».

ولكن لدهشة الجميع رجع ماسير إلى خلف، وأنزل سيفه، وحملق النظارة وتعجبوا وبالأكثر اندهشوا عندما استدار ماسير نحو الإمبراطور ومدَّ ذراعيه وقال:

- «أيها الإمبراطور المكرَّم، أنا مسيحي!

أنا أُقاتل الوحوش فقط، ولكني لن أرفع يديَّ ضد إنسان.

أنا أُفضِّل أن أموت عن أن أقتل إنساناً».

وانطلقت دمدمة هائلة وسط الجمهور:

وصرخ مرسيللوس:

- «ماذا يقول؟ مسيحي؟ متى حدث هذا؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فرد عليه لوكيوللوس:

– «أنا سمعت أن بعض المسيحيين الأشقياء زاروه في زنزانته وأنه انضم إلى جماعتهم الحقيرة. إنهم جماعة من المنبوذين، ومن المحتمل أن يكون مسيحياً فعلاً».

– «وهل يُفضِّل أن يموت عن أن يُقاتل إنساناً؟»

– «أعتقد أن هذه هي طريقة هؤلاء الخارجين عن ديانتنا».

وحلَّ الغضب وسط الجموع الثائرة محل الدهشة، وكانوا مغتاظين من أن مصارعاً يجرؤ أن يخيِّب أملهم، واندفع المشاهدون للتدخل وقالوا إن القتال يجب أن يستمر. وإذ كان ماسير يصرُّ على ألاَّ يُقاتل، فعليه أن يتحمَّل نتائج إصراره.

ولكن ماسير كان ثابتاً على موقفه.

وتقدَّم من الأفريقي وهو غير مسلَّح، وبالرغم من ذلك، فقد كان بمقدوره أن يصرعه حتى بضربة من قبضته!

وهنا صار وجه الأفريقي مثل وجه شيطان، امتزجت فيه الدهشة مع الفرح، والتمع النصر في عينيه الشريرتين. وضرب ماسير بالسيف في قلبه. وصرخ ماسير:

– «يا ربي يسوع اقبل إليك نفسي».

وغرقت الكلمات في الدم المتدفق.

وعبر شهيد المسيح المتواضع لكي يلحق بهذا الجيش النبيل من الشهداء!

– «هل توجد مشاهد كثيرة مثل هذا المشهد»؟ تساءل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مرسيللوس.

- «غالباً، عندما يظهر مسيحيون فإنهم يصارعون أي عدد من الوحوش، الفتيات الصغيرات يخرجن بثبات لملاقاة الأسود والنمور، ولكن ولا واحد من هؤلاء المجانين يرضى أن يُقاتل إنساناً».

وكانت خيبة أمل الجماهير كبيرة في ماسير لأنه كان أعظم مصارع، ولكن لأنه صار مسيحياً فإنه تصرَّف بحماقة - هكذا كانوا يدمدمون!

وقال مارسيللوس:

- «أعتقد أن هذا دِينٌ عظيم، ذلك الذي يجعل مصارعاً عادياً يتصرَّف هكذا».

- «إنك سوف تأخذ فرصة لتتعلَّم كثيراً عن هذه الديانة».

- «كيف ذلك»؟

- «ألم تسمع إذاً؟ إنك قد تعيَّنت لتبحث عن بعض هؤلاء المسيحيين، إنهم يقيمون في السراديب Catacombs، وعليك أن تصطادهم».

- «أعتقد أنهم حصلوا على عدد كافٍ منهم، فقد أحرقوا خمسين منهم اليوم».

- «وقطعوا رأس مائة في الأسبوع الماضي، ولكن ما هذا بالنسبة لهم؟ فإن المدينة تموج بهم، والإمبراطور مصمم على استرجاع الديانة القديمة تماماً، لأنه منذ ظهور هؤلاء المسيحيين والإمبراطورية تضمحل، وقد وضع في ذهنه أن يستأصلهم لأنهم سبب لعنة ويجب أن يُقتلوا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

على هذا الأساس، وأنت سوف تفهم ذلك حالاً»[٣].

– «ليس لي في روما مدة طويلة – حتى أعلم» قال مرسيللوس باتضاع، «وأنا أفهم بالضبط ما هو إيمان هؤلاء المسيحيين، ولكن سمعت أنه تُلصق بهم كل جريمة. ولكن إذا حدث كما أخبرتني فربما أجد فرصة أتعلم فيها عنهم».

والآن جذب انتباههم منظر آخر.

دخل رجل عجوز إلى الساحة، وكان يبدو منحنياً وشعره أبيض كالفضة، كان عجوزاً جداً. واستقبلوه بصيحات السخرية بالرغم من أن وجهه الملائكي وطريقته الرزينة يبعثان على الإعجاب.

وعندما وصل إلى سمعه صرخات الضحك والاستهزاء رفع رأسه وتمتم ببعض كلمات ...

– «مَنْ هو»؟ سأل مرسيللوس.

– «أَلِكْسَنْدَر معلِّم لشيعة المسيحيين، وهو ثابت جداً ولا يريد أن يتراجع».

– «صَه! إنه يتكلَّم».

قال الرجل العجوز: «أيها الرومانيون: أنا مسيحي، إلهي مات من أجلي وأنا أضع حياتي بكل مسرة لأجله».

وتعالت صيحات الاحتقار والاستهزاء من الجموع الثائرة، وتلاشى صوته. وقبل أن ينتهي ذلك تقدَّم إليه ثلاثة أسود، فبسط يديه ونظر إلى السماء وتحركت شفتاه تتمتمان بكلمات الصلاة، وضربته

---

(٣) هذا الاضطهاد جرى بواسطة الإمبراطور ديسيوس (٢٤٩ – ٢٥١م)، لمدة سنتين ونصف. ثم قُتل في معركة مع الألمان قرب نهاية عام ٢٥١م.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الحيوانات المتوحشة وهو في مكانه ومزقوه في لحظة إلى قِطع صغيرة.

ودُفعت حيوانات أخرى في الساحة، كانت تجري وتقفز على الحواجز الحديدية المحيطة، وفي هياجها كانت تهاجم بعضها بعضاً. وكان منظرها مرعباً.

وفي وسط هذا المنظر، دفعوا بمجموعة من المساجين المساكين مكونة أساساً من فتيات صغيرات، قدموهن ذبيحة لإشباع شهوة الجماهير الرومانية الدموية، وكان هذا المنظر يحرك الشفقة في أي قلب حتى ولو كان متحجراً.

ولكن لا يوجد مكان للشفقة في روما!

وكانت الصغيرات خائفات وتعوزهن الشجاعة، وهذا أظهر ضعف الطبيعة الإنسانية عند مواجهة الموت في هذا الوضع المرعب.

ولكن، بعد دقائق قليلة استعاد إيمانهم قوته ورفعهم فوق كل خوف؛ وعندما أحست الحيوانات بضحاياها وتقدَّمت نحوها، أمسكت هؤلاء الفتيات أيديهن بأيدي بعضهن البعض، ورفعوا عيونهن نحو السماء، وأخذن يرنمن ترنيمة ارتفعت واضحة إلى السماء، وكانت في منتهى الحلاوة والجمال:

إلى الذي أحبَّنا	بدمه طَهَّرنا
إلى الذي قدَّمنا	للآب وجَعَلَنا
ملوكاً وكهنة	صِرْنا له بجملتنا
له المجد والبركة	الآن وإلى الأبد
هلليلويا هلليلويا	هو كلُّ شيءٍ لنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وهـدأت الأصـوات صوتـاً بعـد صـوت، أخمدهـا الـدم والمعانـاة والمـوت، وواحــدة بعــد واحــدة امــتزجت حشــرجة المــوت فيهــا مــع أصــوات التســابيح.

ورفعـت هـذه النفـوس الصغيرة الـتي عـبرت الآلام وظلـت أمينـة حتـى المـوت أصـوات تسـابيحها لتمـتزج مـع ترنيمـات المفديـين في الأعـالي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثاني

معسكر الحرس الإمبراطوري

[«وكان ... كرنيليوس قائد مائة ...، وهو تقي، وخائف الله.» (أع ١٠:١و٢)]

وُلِدَ مارسيللوس في معسكرات الجيش في أفريقيا وسوريا وبريطانيا، وقد اشتهر اسمه ليس فقط بسبب شجاعته في ميدان القتال ولكن أيضاً بسبب مهارته في المعسكر؛ ولهذا السبب حصل على درجات الشرف والترقيات إثر رجوعه إلى العاصمة روما، التي وصلها وهو يحمل التقارير العسكرية التي تشهد ببسالته. ولقد فاض السرور في نفس الإمبراطور حتى إنه رقّاه إلى مكانة عالية بين الحرس الإمبراطوري. أمَّا لوكيوللوس فلم يُغادر إيطاليا أبداً، بل إنه نادراً ما خرج إلى خارج المدينة.

وقد كان لوكيوللوس ينتمي إلى واحدة من أعرق وأقدم الأُسر الرومانية، وكان يتمتع بثروة ونفوذ كبيرين. وكان مُعجباً جداً بجرأة مرسيللوس وطبيعته الصريحة. ولهذا أصبح الإثنان صديقين حميمين. وكانت معرفة لوكيوللوس الدقيقة للعاصمة ذات نفع لصديقه، وكان المشهد الذي وصفناه في الفصل السابق أثناء إحدى الزيارات الأُولى التي زارها مرسيللوس للكوليزيوم الشهير.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يقع معسكر الحرس الإمبراطوري مُلاصقاً لسور المدينة، وكان يُحيطه حائط آخر متصل بالسور. وكان الجنود يعيشون في حجرات مثل الزنزانات مبنية في حائط السور نفسه، وكانوا عديدين ونُخبة مختارة من الرجال. أعطاهم مركزهم في العاصمة قوةً وتأثيراً كبيرين حتى إنهم ولسنوات طويلة كانوا يتسلَّطون على حكومة العاصمة.

وأن يكون المرء قائداً في الحرس الإمبراطوري، فذلك يُعتبَرُ طريقاً مضموناً للمجد، وكان لبطلنا مرسيللوس الفرصة أن يتطلَّع إلى المستقبل بثقة في الوصول إلى مدارج الشرف.

وفي صباح اليوم التالي دخل لوكيوللوس إلى حجرة زميله، وبعد التحيات المعتادة أخذ يتحدث عن المصارعة التي شاهداها في اليوم السابق.

فقال مرسيللوس لزميله:

– «أنا لا أستسيغ هذه المناظر، إنها مناظرة جبانة! أنا أُفضِّل أن أرى اثنين من الرجال المدربين جيداً يدخلون في صراع عادل، ولكن هذه الوحشية التي شاهدناها في الكوليزيوم فهي غير مقبولة. لماذا تحتَّم أن يموت «ماسير»؟ لقد كان رجلاً شجاعاً وأنا أُكرِّم شجاعته. ولماذا يُقدَّم الشيوخ والأطفال الصغار طعاماً للوحوش؟»

– «إنه القانون. إنهم مسيحيون».

– «هذه هي الإجابة دائماً ... ماذا فعل المسيحيون؟ لقد رأيتهم في كل مكان في العالم، ولكن لم أعلم أبداً أنهم اشتركوا في أية اضطرابات أو قلاقل».

– «إنهم أردأ الناس!»

– «هذا ما يُشاعُ عنهم؛ ولكن ما هو الدليل على ذلك؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



«الذين بالإيمان... سدُّوا أفواه أسود. وآخرون عُذِّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل» (عب ١١: ٣٣، ٣٥).

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «الدليل؟ إن الدليل على ذلك معروف جيداً. إن جريمتهم هي أنهم يقاومون في السر قوانين الدولة وديانتها الرسمية وكراهيتهم شديدة جداً لمؤسساتنا حتى إنهم مستعدون أن يموتوا على أن يقدِّموا الذبائح للآلهة، وهم لا ملك لهم أو حاكم إلاَّ ذلك اليهودي المصلوب والذي يعتقدون أنه حي الآن. وهم يُظهرون حقدهم علينا بإصرارهم على أننا كلنا سوف نُعذَّب في الجحيم بعد ذلك إلى الأبد».

- قد يكون هذا صحيحاً! أنا لا أعرف. أنا لا أعرف أي شيء عنهم حالياً».

- «إن المدينة تموج بهم حالياً، بل إنهم قد اجتاحوا كل الإمبراطورية! وتأمل أيضاً فيما أقوله لك: إن اضمحلال إمبراطوريتنا الذي نراه جميعاً ونئن من أجله بل وانتشار الضعف والتمرُّد بل وانحسار حدود الإمبراطورية، كل هذا يزداد بازدياد عدد المسيحيين. وإلى مَنْ تُعزى هذه الشرور جميعاً إن لم يكن إليهم؟»

- «وكيف تسبَّبوا في هذا؟»

- «لقد تسبَّبوا في هذا بتعاليمهم الرديئة. إنهم يعلِّمون أن القتال خطأ، وأن الجنود أحطُّ الناس، وأن ديانتنا العظيمة التي ازدهرت الإمبراطورية في ظلها إنما هي ديانة ملعونة، وأن الآلهة الخالدين ليسوا سوى شياطين ملاعين. إنهم يدوسون على كل الأخلاقيات بتعاليمهم. وهم في طقوسهم الخاصة يمارسون أشنع الجرائم ظلماً وحماقة. وهم يعيشون في سرِّية مُحْكَمة، ولكن أحياناً نسمع عن ممارساتهم الشريرة وأغانيهم الخليعة».

- «في الحقيقة إن كل ما قلته خطير فعلاً، وإذا كان صِدقاً فإنهم يستحقون أقسى العقاب. ولكن حسب قولك إنهم منغلقون على

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أنفسهم ولا يُعْرَف عنهم إلاَّ القليل، فأرجوك أن تُخبرني، هل هؤلاء الذين ماتوا بالأمس كانوا مثلما وصفتهم؟ هذا الشيخ هل كان يبدو عليه أنه قد أمضى حياته في الممارسات الشهوانية؟ وهل هؤلاء الفتيات الصغيرات كُنَّ يُغنين أغاني خليعة وهم ينتظرون هجوم الأسود عليهن؟»

وردَّد مارسيللوس بصوت خافت الكلمات التي سمعها والتي اخترقت فؤاده:

إلى الذي أحبنا   بدمه طهّرنا

ثم أردف يقول:

ـ «أنا أعترف لك يا صديقي أني حزنت من أجلهم حزناً شديداً، ولولا أنني جندي روماني لكنت قد استسلمت للبكاء.

أرجوك أن تتأمل للحظة معي! إنك أخبرتني عن أشياء كثيرة عن هؤلاء المسيحيين وإنك تعترف بأنك عرفت هذه الأمور من أُناس هم أنفسهم لا يعرفون شيئاً، وأنت تؤكد أنهم أدنياء ومرذولون، ونفاية الأرض كما تقول، ولكني أرى أنهم يواجهون الموت الذي هو أقسى اختبار لصفات النفس السامية بمنتهى النُبْل. إنهم يموتون بعظمة!

إن روما في كل تاريخها لا يمكن أن تُخرج منظراً أكثر تقوى من المنظر الذي رأيناه بالأمس.

أنت تقول إنهم يحتقرون الجنود؛ ولكنهم شجعان.

أنت قلت لي إنهم خونة؛ ولكنهم لم يقاوموا القانون.

أنت قلت لي إنهم نجسون؛ ولكن إذا كان هناك طهارة على الأرض فإنها تتمثّل في هؤلاء الفتيات الصغيرات اللواتي مُتْنَ بالأمس».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «أنا أرى أنك متحمِّس لهؤلاء المطرودين».

– «ليس كذلك يا لوكيوللوس، ولكن أريد أن أعرف الحق. ولقد ظللت طوال حياتي استمع إلى هذه التقارير، ولكني بالأمس ولأول مرة شككت أن هذه التقارير كاذبة، ولذلك سألتك باهتمام عن هذه الأمور ولكني وجدت أن معلوماتك مبنية على لا شيء. وأنا أتذكر أنه قيل لي إن هؤلاء المسيحيين في كل العالم هم قوم مُسالمون وأمناء، وهم لا يشتركون في أية اضطرابات أو فتن، وإنه لا يمكن إثبات أية تهمة من التهم الموجَّهة إليهم، فلماذا إذاً يجب أن يموتوا؟»

– «أعتقد أن الإمبراطور عنده الأسباب الكافية لسلوكه ضدهم هكذا؟»

– «من الممكن أن يكون قد حرَّضه مشيرون جهلة أو خبثاء».

– «أنا أعتقد أن هذه هي خطته هو بالكامل».

– «إن الذين قُتلوا عددهم كبير».

– «آه. نعم! بضعة آلاف، ولكن يوجد آخرون كثيرون غيرهم وهم بعيدون عن متناول الأيدي. وهذا يذكرني بما جئتُ من أجله إليك، لقد أحضرتُ لك مرسوماً إمبراطورياً».

وهنا أخرج لوكيوللوس من بين ثنيات عباءته العسكرية، أحد الرقوق وسلَّمه لمارسيللوس. وفحص مارسيللوس محتويات الرق بعناية واهتمام، فوجد أن المرسوم الإمبراطوري قد رقَّاه إلى درجة أعلى ثم يكلِّفه بالبحث عن المسيحيين والقبض عليهم من الأماكن التي يختفون فيها، وذكر بالذات السراديب (Catacombs).

قرأ مارسيللوس المرسوم بجبين مقطب ثم وضعه جانباً.

فقال له زميله:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «إنك لا تبدو سعيداً».

- «أنا أعترف لك أنها مهمة غير سارة، لأني جندي وأكره أن أصطاد الشيوخ والأطفال الضعفاء وأُحضرهم إلى الجلادين. ولكن لأني جندي فعليَّ أن أُطيع، وأرجوك أن تخبرني شيئاً عن هذه السراديب».

- «السراديب؟ إنها منطقة تحت الأرض تمتد إلى حدود غير معروفة تحت المدينة، والمسيحيون يهربون إليها عند الخطر، وهم يدفنون موتاهم هناك، وعندما يختفون فيها فإنهم يصبحون بعيداً عن متناول أعظم قوة في الدولة».

- «مَنْ صنع هذه السراديب؟»

- «لا أحد يعلم بالضبط، لأنها موجودة منذ أجيال. وأنا أظن أنها قد حُفرت لاستخراج رمل لاستخدامه كلاصق في المباني، وفي الوقت الحالي فإن كل ما نستعمله من أسمنت يخرجونه من هناك، ويمكنك أن ترى العمَّال وهم يُحضرونه على أي طريق من الطرق الكبيرة، وهم يضطرون حالياً أن يذهبوا بعيداً لإحضاره لأنهم ولأجيال عديدة قد حفروا كثيراً تحتنا حتى إن المدينة تقوم حالياً على أساس يشبه أعشاش النحل».

- «هل لهذه السراديب مداخل منتظمة ومعروفة؟»

- «إن لهذه السراديب مداخل كثيرة جداً غير محددة، وهذه هي الصعوبة، لأنه لو كان لها عدد قليل من المداخل لأمكننا أن نمسك المُطارَدين المسيحيين ولكننا لا نعرف من أي اتجاه نتقدَّم إليهم».

- «هل هناك مكان معين مشكوك فيه؟»

- «نعم! على بعد ٢ ميل من طريق آبيا (Appian way) بالقرب

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

من مقبرة سيسليا ميتالا. وعند البرج المستدير العالي الذي تعرفه وُجدت بعض الجثث ويُعتقد أنها جثث بعض المسيحيين التي رُفعت من الساحة لكي يدفنوها. وعندما كانوا يحسُّون بدنوِّ الحرَّاس كانوا يتركونها ويهربون. ولكن كل هذا لا يساعد في شيء، لأنه حتى بعد أن تدخل السراديب فإنك لن تصير قريباً من غرضك أكثر من الأول. لأنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يخترق هذه المتاهة اللانهائية بدون مساعدة من هؤلاء الذين يعيشون بداخلها».

– «مَنْ يعيش هناك؟»

– «الحفَّارون الذين مازالوا يستخرجون الرمال للبنَّائين. إنهم كلهم تقريباً مسيحيون، وهم دائماً يعملون في حفر المقابر لموتى المسيحيين. وهؤلاء رجال عاشوا كل حياتهم هناك، وهم ليسوا فقط يعرفون كل الممرات ولكن يمتلكون حاسة خاصة ترشدهم هناك».

– «هل دخلت السراديب في حياتك؟»

– «مرة واحدة من مدة طويلة، ولقد دلَّني إليها أحد الحفَّارين، ولقد بقيت داخلها مدة قصيرة. وانطباعي الشخصي عنها أنها أفظع مكان في العالم».

– «لقد سمعت عن السراديب، ولكني لم أعرف عنها شيئاً من قبل، ومن الغريب أن تكون المعلومات عنها قليلة هكذا، أليس من الممكن أن يقوم هؤلاء الحفَّارون بإرشاد الجنود في هذه المتاهة؟»

– «لا! إنهم لن يخونوا المسيحيين».

– «هلاَّ جرَّبناهم؟»

– «بالتأكيد، بعضهم أطاع وقاد الضباط خلال شبكة من الممرات حتى أصابهم الارتباك وانطفأت مشاعلهم وأصابهم الرعب وسألوه أن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يقودهم إلى الخارج. وقال لهم الحفّار إنه لابد أن المسيحيين قد هربوا ورجع بالجنود إلى نقطة البداية ثانية».

ـ «ألم يصمم أحد الجنود أن يستمر حتى يجد المسيحيين؟»

ـ «إذا صمموا على مواصلة البحث فإن الحفّار سوف يقودهم إلى مالانهاية وهو في الواقع يقودهم خلال بعض الممرات التي بلا عدد التي تتقاطع مع منطقة معينة».

ـ «ألم يوجد واحد رضي بأن يخون هؤلاء المُطارَدين؟»

ـ «أحياناً. ولكن ما الفائدة في هذا أيضاً؟ لأنه عند أول إشارة فإن كل المسيحيين يختفون في الطرق الجانبية التي تُفتح في كل اتجاه».

ـ «إن فرصة نجاحي تبدو ضئيلة».

ـ «إنها ضئيلة حقاً ولكن الأمل كبير وهو موضوع على جرأتك ومهارتك، وإذا نجحت في هذه المهمة فسيكون في هذا حظُّك وسعادتُك.

والآن، إلى اللقاء،

لقد عرفت مني كل ما أعلم، ولن تجد صعوبة في أن تتعلّم ما هو أكثر من أي واحد من الحفّارين».

وغادر لوكيوللوس المكان بعد أن قال هذا.

وأسند مارسيللوس رأسه على يده، وسرح مع أفكاره.

ولكن دائماً في خلال تأملاته كان يخطر على قلبه هذه النغمات المجيدة التي تعبِّر عن الانتصار على الموت:

إلى الذي أحبنا بدمه طهَّرنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثالث

طريق آبيا

The Appian Way

المقابر في صفوف حزينة تحرس بقايا العظماء،
هاجعة في طريق آبيا.

انخرط مارسيللوس في المهمة المُلقاة على عاتقهِ بدون أي تأخير، وبدأ في اليوم التالي مباشرة تحرياته. وكانت رحلته الأُولى لمجرد استطلاع الأمر، فلذلك لم يأخذ معه أي جندي وسار على قدميه من ثكنة الحرس إلى خارج المدينة نازلاً إلى طريق آبيا.

وكان هذا الطريق الشهير محفوفاً بالمقابر على كلا جانبيه، وكل مقبرة محفوظة بعناية بواسطة العائلة التي تمتلكها، وعلى مسافة من الطريق إلى الخلف توجد منازل وفيلات كثيرة متزاحمة مثل المدينة. أمَّا الريف الفسيح فكان يقع على بعد.

وبعد مدة طويلة وصل إلى برج ضخم عالٍ مستدير، يبعد حوالي ميلين من المدينة. وهذا البرج مشيَّد من كُتل ضخمة من الحجر الجيري وكان مزيناً جميلاً ولكن في بساطة. وقد أكْسَبته طريقة بنائه وقوة مبانيه صلابة أمام عوامل الزمن.

وتوقف مارسيللوس عند هذا المكان وتطلع إلى الخلف، فقد كان كل منظر في روما جديداً ومثيراً لمن هو غريب عنها. وكان أكثر هذه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المناظر لفتاً لأنظاره ذلك الصف الطويل من المقابر. فهنا يقع آخر مكان لراحة العظماء والنبلاء وأبطال الأيام الخوالي، وكانت شواهد قبورهم تُعلن عن الشرف والمجد الذي نالوه على الأرض وعن اعتقاد غامض باهت بحياة أُخرى غير معروفة. ولقد امتزج في هذه النُصُب التذكارية الفن مع الثروة، وقد حَفِظَت مشاعر التعاطف هذه النُصُب من الفناء على مرِّ الزمن، وهناك حيث كان يقف، رأى أمامه ذلك الضريح الفخم لـ «سيسليا ميتالا»، وعلى بُعدٍ تقع قبور الكالاتينيين والسرفيليين وتقع العين أيضاً على البعد على مقبرة الأسكيبويين التي تمجَّدت مبانيها الكلاسيكية بسبب عظمة الراقدين فيها.

وترددت في ذهنه كلمات شيشرون: «إنك عندما تغادر Porta Capena وترى مقابر الكالاتينيين والأسكيبويين والسرفيليين والميتاليين، هل يمكنك أن تعتقد أن هؤلاء المدفونين غير سعداء؟

وكان هناك قوس نصر دروسوس يرتفع فوق الطريق، وعلى أحد الجوانب يوجد كهف "إيجيريا". وعلى مبعدة توجد البقعة التي وقف فيها هانيبال يوماً وقد سدَّد رمحه بقوة نحو أسوار مدينة روما. وكان خط المقابر يمتد إلى مسافة، وينتهي بالأهرامات المرتفعة لـ "كايوس سيستيوس". وكان هذا كله يمثل أعظم منظر للمدافن العظيمة على سطح الأرض.

وفي كل النواحي نجد أن منازل الناس تغطِّي الأرض، لأن المدينة الإمبراطورية امتدت من مدة طويلة خارج الحدود التي كانت تحدها وقد امتدت منازلها في كل ناحية إلى الريف حتى إن المسافر كان لا يستطيع أن يميِّز بسهولة أين ينتهي الريف وأين تبدأ المدينة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وتطرّق إلى سمعه من بعيد صوت ضجيج المدينة، قرقعة مسير العربات الكثيرة وأصوات أقدام المشاة. وكان يرتفع أمامه النصب التذكارية والهياكل ولمعان القصر الإمبراطوري وعدد لا يُحصى من القباب والأعمدة، مرتفعة إلى فوق كمدينة معلقة في الهواء. وأعلى هذا كله يُرى جبل الكابيتول وقد توّجهُ معبد جوبتير. ولكن كانت مهابة مدينة الموتى أعظم تأثيراً في النفس من كل عظمة مدينة الأحياء.

ما أعظم روعة المباني المحيطة به! وهنا ترتفع النُصُب التذكارية الفاخرة للعائلات الرومانية العظيمة. الشجاعة والبطولة والعبقرية والفخر والثروة. وكلُّ ما يحبه الإنسان ويقدِّره، تجمَّع هنا ليجعل الحجارة تحيا وتثير الشجون في النفس. هنا توجد الأشكال الظاهرة لأعظم ما أنتجته الديانة الوثنية القديمة، ولكن تأثير هذه الديانة في النفس لا يرقى أبداً إلى ما أنتجته في الخارج ولا إلى روعة طقوسها الخارجية وأُبهتها. وكانت شواهد قبور الموتى لا تُظهر الإيمان ولكن حب الحياة والانتصار في هذا العالم، ولا ترينا الثقة بالحياة الأخرى الغير المائتة، ولكن ترينا رغبة عميقة وتشوُّق ذليل إلى ملذات هذا العالم.

كانت هذه أفكار مارسيللوس وهو يمتّع ناظرَيْه بالمنظر الذي أمامه ويستعيد كلمات شيشرون: "هل يمكنك أن تعتقد أن هؤلاء الرفاق المدفونين غير سعداء؟"

وكان مارسيللوس يفكر:

"إن هؤلاء المسيحيين الذين أبحث عنهم الآن يبدو وكأنهم قد تعلّموا أكثر من كل ما أجد في فلسفاتنا، لأنهم لم يغلبوا الخوف من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الموت فقط ولكن تعلَّموا أن يموتوا وهم متهللون. أية قوة سرية يمتلكونها قادرة على أن تُلهم حتى الصغار والضعاف بينهم؟ ما هو المعنى المخفي في تراتيلهم؟

إن دياناتي تأمل فقط أن أكون سعيداً في هذه الحياة، ولكن ديانتهم تقودهم إلى الموت وهم يُنشدون أناشيد الظَفْر والفرح».

ولكن كيف يبدأ البحث عن المسيحيين؟ فإن جموعاً كثيرة من الناس تعبر عليه ولكنه لا يَرَى أحداً قادراً على مساعدته.

وكانت تحيط به من كل جانب مباني من مختلف الأحجام وأسوار ومقابر وهياكل ولكنه لم يرَ أي واحد منها يمكن أن يكون على صلة بالسراديب. وكان تائهاً تماماً ولا يعلم ماذا يفعل.

انحدر إلى الشارع ومشى ببطء وكان يفحص كل مَنْ يعبر به باهتمام ويفحص كل مبنى، ولكنه لم يصل إلى أية نتيجة سوى أنه اكتشف أن المنظر الخارجي ليس له أية علاقة بالمساكن السفلية. وعبر عليه النهار وتأخر الوقت جداً، ولكن مارسيللوس تذكر أنه توجد عدة مداخل للسراديب، فاستمر في بحثه لعله يعثر على مفتاح للموقف قبل نهاية اليوم.

وأخيراً وصل إلى نتيجة، فإنه بعد أن سار إلى الأمام وإلى الخلف وفي كل اتجاه، ثم عند الغروب، والشمس عند حافة الأفق، لمح بعينيه الحادتين رجلاً يسير في الاتجاه المضاد وكان يتبعه صبي. كان لباس الرجل خشناً ومبتلاً ومغطّاً بالتراب والرمل، وكان مظهره شاحباً مبيَّضاً مثل واحد مسجون لمدة طويلة. واجتذب منظره للوقت عينيّ الجندي الشاب.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فسار مارسيللوس إليه ووضع يده على كتفه وقال له:

– «إنك حفّار ... تعالَ معي».

ونظر الرجل إليه، فرأى هذا الوجه الجاد، وارتعب من ملابس الضابط التي عليه، وفي لمح البصر اندفع بعيداً وقبل أن يتمكن مارسيللوس من أن يتبعه هرب الرجل إلى ممر جانبي ضيق واختفى عن الأنظار.

ولكن مارسيللوس أمسك بالغلام وقال له:

– «تعالَ معي».

فنظر إليه الصبي نظرة كلها ألم وخوف، حتى إن مارسيللوس رقّ لحاله. وسقط الصبي على قدميه وهو يتمتم بكلمات متهدجة:

– «أرجوك إرحمني، لأجل خاطر أمي، لأنها ستموت إذا أَخَذْتَني».

– «أنا لن أؤذيك. تعالَ».

وقاد مارسيللوس الصبي بعيداً عن الطريق إلى مكان فضاء. ووقف أمام الصبي وقال له:

– «الآن قل لي الحقيقة. مَنْ أنت؟»

أجاب الصبي:

– «اسمي بولليو».

فسأله مارسيللوس:

– «أين تعيش؟»

– «في روما».

– «ماذا تفعل هنا؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ـ «لقد كنت هنا في مهمة»

ـ «مَنْ هـذا الرجل؟»

ـ «إنه حفّار».

ـ «وماذا كنت تعمل معه؟»

ـ «إنه كان يحمل حملاً لي».

ـ «وماذا كان في الحمل؟»

ـ «احتياجات يومية».

ـ «إلى مَنْ كُنت تحملها؟»

ـ «إلى إنسان مُعدم هنا».

ـ «أين يعيش هذا الشخص؟»

ـ «ليس بعيداً عن هنا».

ـ «والآن أيها الصبي أخبرني الحق هل تعرف أي شيء عن السراديب».

ـ «فأجاب الصبي بهدوء: لقد سمعت عنها».

ـ «هل دخلتها في أية مرة؟»

ـ «نعم، لقد كنت في بعضها».

ـ «هل تعرف أي إنسان يعيش فيها؟»

ـ «بعض الناس. الحفار يحيا هناك.»

ـ «إذاً، أنت كُنتَ ذاهباً معه إلى السراديب؟»

فأجاب الولد ببراءة:

ـ «ماذا أفعل هناك في وقت مثل هذا؟»

ـ «هذا ما أريد أن أعرفه. هل أنت ذاهب إلى هناك؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «كيف أجرؤ على الذهاب إلى هناك وهذا ممنوع بأمر القانون. إنه المساء الآن».

أجابه مارسيللوس مقاطعاً:

– «تعالَ معي إلى صلاة المساء في أحد المعابد».

تردَّد الصبي وقال له:

– «أنا مستعجل».

– «إنك سجيني وأنا لا أُهمل في عبادة الآلهة، فيجب أن تحضر وتشترك معي في العبادة».

– «أنا لا أستطيع».

– «لماذا لا تستطيع؟»

– «لأني مسيحي».

– «أنا أعرف هذا. وأنت لك أصدقاء في السراديب وأنت ذاهب إلى هناك الآن، وهؤلاء هم المُعدمون الذين تحمل إليهم هذه الحاجيات، والمهمة التي أنت فيها هي من أجلهم. فأحنى الولد رأسه واستمر صامتاً».

– «أريد أن تأخذني الآن إلى مدخل السراديب».

– «آه أيها الجندي الشهم، أرجوك إرحمني، ولا تطلب مني ذلك لأني لا أستطيع أن أفعل هذا وأخون أصدقائي».

– «إنك لن تخونهم. فليس هذا بشيء أن تُريني مدخلاً من آلاف المداخل التي تقود إلى داخل السراديب. فهل تظن أن الحرَّاس لا يعرفون كل مدخل؟»

ففكر الصبي للحظة ثم أشار بالموافقة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أمسك مارسيللوس بيده وتبعه، وانحرف الغلام إلى اليمين عن طريق آبيا وسار مسافة قصيرة حتى وصل إلى منزل مهجور. ودخل ونزل إلى القبو، وكان هناك باب يُفتح على حجرة صغيرة خاصة أشار إليه الولد ووقف.

فقال مارسيللوس بتصميم:

ـ «أنا أريد النزول إلى هناك».

فقال له الغلام:

ـ «إنك لن تجرؤ أن تنزل هناك بمفردك. فهل تريد ذلك؟»

ـ «إن المسيحيين يقولون إنهم لا يقتلون. فلماذا أخاف إذاً؟ هيا قُدْني إلى هناك».

ـ «ليست معي مشاعل».

ـ «أنا معي. لقد استعددت لهذا. هيا بنا».

ـ «أنا لا أستطيع».

ـ «هل ترفض ذلك؟»

فأجاب الغلام:

ـ «يجب أن أرفض، لأن أصدقائي وأقاربي هم هناك أسفل وأنا أفضِّل أن أموت مائة مرة عن أن أقودك إليهم».

ـ «أنت صبي جريء. ولكنك لا تعلم ما هو الموت».

ـ «هل لا أعلم!!؟ إن المسيحي لا يخاف الموت. لقد رأيت كثيرين من أصدقائي يتعذبون عذاباً شديداً حتى الموت وساعدت في دفنهم. أنا لن أقودك إلى هناك هيا خذني إلى السجن».

واستدار الصبي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «ولكن إذا أخذتك إلى السجن فماذا يظن أصدقاؤك؟ هل لك أُمٌّ؟»

أحنى الولد رأسه وانفجر في موجة من البكاء. إن ذكر هذا الاسم العزيز عليه قد غلبه.

– «أظن أن لك أُماً وأنك تحبها. قُدني إلى الداخل وأنت سوف تعود إلى أُمك».

– «لا، أنا لن أخونهم. أنا أموت أولاً ولا أخونهم. أفعل بي ما تريد».

فقال له مارسيللوس:

– «لو كان لي أي غرض شرير هل كنت أدخل هناك بمفردي؟»

– «ماذا يمكن أن يُريد جندي من الحرس الإمبراطوري من المسيحيين المضطَهدين إلاَّ تحطيمهم وإبادتهم؟»

– «اسمع يا بني. أنا ليس لي أية نوايا شريرة وإذا قُدتني إلى أسفل فأنا أقسم بأني لن أستخدم معلوماتي ضد أصدقائك، وعندما أنزل إلى هناك، فإني سأكون سجينهم ويمكنهم أن يفعلوا بي ما يشاءون».

– «هل تُقسم بأنك لن تخونهم!؟»

– «أنا أقسم بحياة قيصر والآلهة الخالدين. أجاب مارسيللوس مؤكداً».

أجاب الصبي:

– «تعال إذاً معي، إننا لا نحتاج إلى مشاعل. اتبعني بحرص».

ودخل الصبي من الفتحة الضيقة.

✥ ✞ ✥

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الرابع

السراديب

The Catacombs

لا نور، ولكن ظلام مرئـي، ظـلام يُظهـر مناظر البـؤس والشـقاء، منـازل الأحـزان، وظـلال الأهـوال.

سـار الاثنـان في ظـلام دامـس إلى أن انتهيـا بعـد مـدة طويلـة إلى ممـر واسع ووصلوا إلى درجات تنزل إلى أسفل. وأمسك مارسيللوس بثيـاب الغلام وتبعـه.

لقد كان وضع مارسيللوس مثيراً للحذر والانتباه. لقد وضع نفسه بحريته تحت سلطة أُناس طردهم المجتمع من الهواء الطلق الذي في الخارج إلى هذه المساكن المرعبة. وكان وضعه بالنسبة إليهم لا يزيد عن كونه أحد الذين يضطهدونهم. ولكن الانطباع الذي كوَّنه عن لطفهم ورقَّتهم وتواضعهم، لم يجعل أي شعور بالخوف من الأذى يتسرَّب إلى نفسه. لقد كان في مقدور هذا الصبي الصغير أن يقوده إلى الهلاك في ظلام هذه المتاهة الدامس، ولكن مارسيللوس لم يفكر حتى في هذا. كانت رغبته الشديدة في معرفة الكثير عن هؤلاء المسيحيين، وكان الوصول إلى سرِّهم، هو ما جذبه إلى هذا المكان.

وقد صمم مارسيللوس في نفسه على أن لا يستخدم زيارته هذه هم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لخيانتهم أو أذيتهم، كما أقسم للصبي من قبل.

وبعد أن نزلا إلى أسفل بعض الوقت عادا مرة أخرى للسير على أرض مستوية، واستدارا سريعاً بعد ذلك، ودخلا إلى حجرة صغيرة مَقْبية، كان يضيئها نور خافت منبعث من فرن بداخلها. وسار الغلام بدون أي تردد كشخص يعرف طريقه جيداً، وعندما وصل إلى الحجرة أضاء مشعلاً كان موضوعاً على الأرض ثم واصل سيره.

كان هناك شيءٌ ما في هواء ذلك المكان يدل على أن بالموضع مدافن، شيءٌ يميز أماكن الدفن عن غيرها من الأماكن. لم يكن هذا الإحساس الذي يساور مَنْ يدخل إلى السراديب سببه فقط أن المكان مغلق أو بسبب رطوبة المكان أو رائحة التراب العفنة، ولكن كانت توجد هنا رائحة الموت التي تؤثر في ذهن وجسد مَنْ يدخل إلى السراديب.

لقد كان هذا هو هواء السراديب، السراديب التي كانت ببرودتها ورطوبتها تصدم الزائر بقشعريرة مَنْ يواجه عالم الموتى. هنا يواجه الأحياء القوة الخفية التي للموت.

واستمر بولليو في السير وخلفه مارسيللوس وكان المشعل ينير الظلام الدامس بصعوبة. ولم يكن هناك أي شعاع من ضوء النهار أو النور مهما كان ضعيفاً يمكنه أن يدخل إلى هنا حتى يخفف من حدة هذا الظلام الدامس. هنا تكاد تلمس الظلام. حتى نور المشعل يضيء بضع قصبات ثم يتلاشى بعد ذلك في هذا الظلام الدامس.

وكان الطريق ينحني انحناءات لا تُحصى، وفجأة توقَّف بولليو وأشار إلى أسفل وحملق مارسيللوس في الظلام فرأى فتحة في الممر

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تقود إلى أسفل وكان لا يُرى لهذه الفتحة قاع، فقال:

– «إلى أين تقودنا هذه الفتحة؟»

فأجاب بولليو:

– «إلى أسفل».

– «هل هناك ممرات سفلية أخرى كثيرة؟»

– «آه. نعم! مثلما يوجد هنا، وحتى أسفل من هذه أيضاً. ولقد سمعت ثلاث روايات عن هذه الممرات، ولقد أخبرني الحفّارون العجزة أنهم نزلوا في بعض المناطق إلى أعماق كبيرة إلى أسفل».

وانحنى الممر الذي يسيران فيه مرة أخرى حتى إن مارسيللوس فقد تماماً أي إحساس بالموقع. ولم يكن مارسيللوس يستطيع أن يحدد مطلقاً هل هو ما يزال بالقرب من المدخل أم أنه ابتعد عنه جداً.

وسرعان ما تحولت أفكاره المضطربة إلى أمور أخرى، وبمجرد أن زال عنه إحساسه بالظلام ابتدأ يتطلّع إلى ما يحيط به. وأخذ يتأمل عجائب هذا المكان الغريب. لقد كان على امتداد الحائط ألواح تغطّي حُفَراً مستطيلة وضيِّقة. وكانت هذه الفتحات مرصوصة على الجانبين بقرب بعضها، وكان يوجد بينها فراغ ضيق، وكانت الكتابة الموجودة على هذه الألواح تبيِّن أنها مقابر مسيحيين، ولم يكن لديه وقت ليتوقف ويقرأ ولكنه لاحظ تكرار نفس التعبير، مثل:

هونوريا ترقد في سلام

فاوستا ترقد في سلام

ورأى على كل لوح تقريباً نفس هذه الكلمة العذبة الحلوة: «السلام». وكان مارسيللوس يفكر وهو سائر: "ما أروع هؤلاء المسيحيين الذين حتى في

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وسط هذه المناظر المقززة يُظهرون احتقارهم للموت".

وابتدأت عيناه تتعوّدان على الظلام. وضاق الممر أكثر وانخفض سطحه وتقاربت جوانبه حتى إنهما اضطرا إلى الإنحناء والسير ببطء أكثر، وكانت الحوائط هنا خشنة ومتعرِّجة كما تركها الحفَّارون عندما أخذوا آخر حِمل من الرمال للأبنية التي فوق وخرجوا.

وكانت رطوبة المكان والطحالب التي تنمو في بعض الأماكن تُزيد من عتمة المكان وتملأ الهواء ببخار الماء، وكان دخَّان المشاعل يُزيد من انقباض الجو.

ومرُّوا على مئات من الممرات الجانبية والأماكن حيث تلتقي طرق عديدة وتتفرع في اتجاهات مختلفة. وهذه الممرات العديدة أظهرت لمارسيللوس كيف أنه أصبح الآن منقطعاً تماماً عن العالم الخارجي، وكيف أن حياته أصبحت بين يدي هذا الغلام.

فسأل الغلام قائلاً:

- «هل تاه أي إنسان هنا؟»

- «دائماً يحدث هذا»، هكذا رد الغلام عليه.

- «وماذا يحدث لهم؟»

- «أحياناً يظلون يلفون حتى يعثروا على بعض الأصدقاء وأحياناً لا يُسمع عنهم ثانية. معظمنا يعرفون المكان جيداً حتى إننا لو تُهْنا فإننا نلف ونعود مرة أخرى إلى ممرات معروفة لدينا».

وقد صدم شيء معين هذا الجندي الشاب، وهو هذا العدد الضخم من المقابر الصغيرة. ولقد أخبره بولليو بأنها مقابر الأطفال، وقد فتح له هذا الأمر باباً لمشاعر وأحاسيس لم يختبرها من قبل.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

"أطفال!!" هكذا فكّر مارسيللوس: "ماذا يفعل الأطفال الصغار الأطهار الأبرياء هنا؟ لماذا لم يُدفنوا هناك فوق حيث تُشرق الشمس برفق وتُزهر الورود بحلاوة على مقابرهم؛ وهل عَبَرَ هؤلاء الأطفال في هذه الطرقات المظلمة خلال حياتهم القصيرة؟ وهل تحمَّلوا نصيبهم من الآلام مع هؤلاء الساكنين هنا الهاربين من الاضطهاد؟ وهل قصَّر هذا الهواء السام وهذه الظلمة اللانهائية من أعمارهم وجعلت أرواحهم البريئة تغادر هذه الحياة قبل الوقت؟"

وقال مارسيللوس:

– «إننا سرنا مسافة طويلة. فهل سنصل سريعاً؟»

فأجابه بولليو:

– «نعم سريعاً جداً».

ومهما كانت الأفكار التي كوَّنها مارسيللوس عن كيفية مطاردة المسيحيين الهاربين والقبض عليهم فإنه بعد دخوله إلى السراديب أدرك أن أية محاولات لذلك فهي محاولات غير مجدية، وأنه من الممكن أن يدخل جيش من الرجال إلى هنا ولا يجدون أي مسيحي واحد، فبمقدار تعمقهم إلى داخل المكان أكثر بمقدار فشلهم الذي سوف يصادفونه ومن الممكن أن يتشتّتوا في هذه الممرات العديدة ويظلوا تائهين حتى الموت.

ولكن جذب انتباهه الآن صوت خافت من بعيد: صوت من أجمل ما يمكن، صوت موسيقي خافت.

انبعث هذا الصوت من الممرات البعيدة وتطرَّق إلى أذنه كصوت من السماء. وعندما استمرا في المسير انبعث أمامهما نور أضاء الظلام، وصار الصوت أعلى وأوضح، صوت خورس عظيم، ثم سكت الصوت وسُمع صوت خافت لتضرعات وصلاة بأنين.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وفي لحظات وصلوا إلى منحنى في الطريق وظهر أمامهم مشهد مهيب.

فقال بولليو:

- «توقف»! وأمسك برفيقه وأطفأ المشعل.

فأطاعه مارسيللوس ووقف وهو ينظر باهتمام في المشهد الذي أمامه.

كان أمامه حجرة مقبية ارتفاعها حوالي خمسة عشر قدماً وعرضها ثلاثون قدماً. وكان يزدحم في هذا المكان ما لا يقل عن مائة إنسان؛ رجال ونساء وأطفال. وكان في أحد جوانب الحجرة مائدة يقف خلفها رجل مهوب، من الواضح أنه قائد الجماعة.

وكان المكان مضاءً بمشاعل عكست أضواءً شاحبة على المنظر.

وكان يبدو على الناس الشقاء والشحوب، وكانت وجوههم تتميز بنفس الشحوب والبهتان الذي لاحظه مارسيللوس على وجه الحفَّار.

ولكن الانطباع الذي كان يملأهم الآن ليس انطباع حزن أو بؤس أو يأس. ولكن كان الرجاء يشع في عيونهم ووجوههم المرفوعة تنطق بالفرح والنصرة، حرك هذا المنظر نفس مارسيللوس من أعماقها لأنه أكد له كل ما سمعه عن المسيحيين: بطولتهم ورجاؤهم وسلامهم الذي يقوم على شيء مخفي عنه.

وعندما أنصت سمع صوت ترتيلهم، وكانت الجماعة كلها ترتل معاً:

[عظيمة وعجيبة هي أعمالك

أيها الرب الإله القادر على كل شئ.

عادلة وحق هي طرقك.

يا ملك القديسين.

مَنْ لا يخافك يا رب ويمجد اسمك.

لأن جميع الأمم سيأتون ويسجدون أمامك.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لأن أحكامك قد أُظهرت]. (راجع رؤ ١٥: ٣و٤)

ثم توقَّف الترتيل وأخذ قائد الجماعة يقرأ من دَرْج، وكان هذا المنظر جديداً على مارسيللوس، وكان ما يقرأه القائد يؤكد على خلود النفس والحياة بعد الموت، وكانت الجماعة كلها متعلقة بالكلمات التي تُقرأ وكأنها كلمات الحياة.

ووصل القارئ إلى نقطة معينة انفجر فيها بهُتاف الفرح، وترددت كلمات الحمد والشكر والرجاء الحار في وسط الجماعة كلها، ورنَّت الكلمات في قلب مارسيللوس مع أنه لم يفهم معناها تماماً:

[أين شوكتك يا موت؟ أين غَلَبتكِ يا هاوية؟
لأن شوكة الموت هي الخطية، وقوة الخطية هي الناموس،
ولكن شكراً لله الذي أعطانا النصرة بابنه يسوع المسيح].
(١كو ١٥: ٥٥-٥٧)

وفتحت هذه الكلمات أمام ذهنه عالماً جديداً وأفكاراً جديدةً: الخطية والموت والمسيح. ارتفعت هذه الأفكار كلها بغموض أمام نفسه التي بدأت تنتبه من رقادها. والتهبت في نفسه الرغبة في معرفة سر المسيحية الذي سمعه الآن أكثر فأكثر.

ورفع قائد الجماعة رأسه وبسط يديه وصلَّى صلاة حارة مخاطباً الله، معترفاً بعدم الاستحقاق، ثم قدَّم الشكر لله لأنه طهرنا من خطايانا بدم المسيح الفادي، وصلَّى لكي يحل الروح من الأعالي حتى يطهِّر الجماعة.

ثم أخذ يعدد أحزانهم ويصلِّي من أجل النجاة والخلاص، ويطلب أن يمنحهم الله الإيمان في هذه الحياة، والنصرة على الموت، ودخولاً بغِنىً إلى السموات من أجل المخلِّص، يسوع.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وبعد ذلك أخذوا يرنمون مثل الأول:

[انظروا، هذا هو مسكن الله مع الناس
وهو سيسكن معهم
وهم يكونون له شعباً
والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم
وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم
والموت لا يكون فيما بعد
ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد
لأن الأمور الأولى قد مضت. آمين.
البركة والمجد والحكمة
والشكر والحمد والقوة والعظمة لإلهنا
إلى أبد الآباد كلها. آمين]. (راجع رؤ ٢١)

وابتدأ الجمع في الانصراف. وتقدَّم بولليو ممسكاً بيد مارسيللوس، وعندما رأت الجماعة مظهره العسكري وأسلحته اللامعة رجعوا إلى الوراء وكادوا أن يهربوا بسرعة إلى الممرات المختلفة، ولكن مارسيللوس ناداهم بصوتٍ عالٍ:

– «أيها المسيحيون لا تخافوا لأني أنا هنا وحدي وتحت سلطانكم».

عندئذ رجعوا كلهم وأخذوا يتطلعون إليه باستغراب. وتقدَّم إليه الشيخ الذي كان يقود الجماعة ونظر إليه باهتمام وقال له:

– «مَنْ تكون؟ ولماذا تتعقبنا حتى إلى آخر مكان بقي لنا على الأرض لنستريح فيه؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «لا تظن بي السوء. أنا جئت وحدي وليس معي أحد وأنا تحت رحمتكم».

– «ولكن ماذا يريد جندي وأحد الحرس الإمبراطوري منّا؟ هل أنت مُطارَد؟ أو لعلك مجرم؟ هل حياتك في خطر؟»

فرد مارسيللوس عليه:

– «لا، أنا ضابط ذو رتبة عالية وسلطان، ولكن طوال عمري أبحث باهتمام عن الحق، ولقد سمعت عنكم الكثير ولكن في هذه الأيام من الصعب العثور عليكم في روما حالياً بسبب الاضطهاد الحادث. ولذلك جئت أبحث عنكم هنا».

وعند ذلك طلب الشيخ من الجماعة أن ينصرفوا حتى يتكلم مع هذا الوافد الجديد. فاستجاب الجمع وانصرفوا في الطرق المختلفة وقد أحسوا بالارتياح.

وتقدمت امرأة شابة إلى بولليو وأمسكته بين ذراعيها وقالت له:

– «لقد غِبْتَ يا بُنيَّ!»

فقال لها بولليو:

– «لقد قابلت هذا الضابط يا أمي ولهذا تأخرت».

– «أشكر الله أنك سالم، ولكن مَنْ هو؟»

فقال لها بولليو:

– «أعتقد أنه إنسان صادق ومخلص. انظري يا أُماه كم يثق بنا».

وهنا نادي الشيخ على المرأة وقال لها:

– «يا سيسليا، ابقي هنا قليلاً».

وبقيت المرأة وبقي معها عدد قليل آخر.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وقال الشيخ مخاطباً مرسيللوس:

– «أنا هو هونوريوس Honorius، شيخ مسكين في كنيسة المسيح. وأنا أعتقد أنك مخلص وجاد. فالآن أخبرنا ماذا تريد منّا».

فقال مارسيللوس:

– «أنا اسمي مارسيللوس، وأنا قائد في الحرس الإمبراطوري».

وعند سماع ذلك صرخ الشيخ ورجع إلى خلف في مقعده، ونظر الآخرون إلى مارسيللوس نظرات جَزِعة.

وصرخت السيدة سيسليا بحزن شديد:

– «يا بولليو! كيف خنت جماعتنا؟».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الخامس

سر المسيحيين

[«عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد.» (١ تي ٣:١٦)]

وقف الجندي الشاب مندهشاً من الأثر العجيب الذي تركه مجرد ذكر اسمه على المحيطين به. وقال لهم:

ـ «لماذا خفتم جميعكم هكذا؟ هل كل هذا الانزعاج بسببي؟

فرد عليه الشيخ هونوريوس:

ـ «نعم. لأننا بالرغم من وجودنا هنا في هذه السراديب ولكننا على صلة مستمرة بالمدينة، ولقد علمنا أن هناك جهوداً جديدة تُبذل لاضطهادنا اضطهاداً أشد قسوة، وأنه قد تمَّ تعيين مارسيللوس وهو قائد في الحرس الإمبراطوري للتفتيش والبحث عنّا، والآن نراك وأنت عدونا الأول واقفاً في وسطنا. فهل لا تعتبر ذلك سبباً كافياً لأن نرتعب؟ أخبرني لماذا تتبعتنا إلى هنا؟»

فقال لهم مارسيللوس:

ـ «في الحقيقة لا يوجد أي سبب للخوف، لأنني، وإن كنت عدوكم الأول، ولكني الآن تحت سلطانكم. وإنكم إذا أردتم أن تحتجزوني وتسجنوني هنا، فهل في إمكاني أن أهرب منكم؟ حتى وإذا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

قتلتموني فهل يمكنني المقاومة؟ فأنا هنا بينكم بلا أي معين. وموقفي هنا بينكم وحيداً، هو أكبر دليل على أنه لا يوجد أية خطورة عليكم من ناحيتي».

وعندما استعاد الشيخ هونوريوس هدوءه الطبيعي المعتاد، قال مخاطباً مارسيللوس:

– «إن هذا فعلاً حقيقي، وأنت صادق فيما تقول، لأنك لا تستطيع أن تعود إلى الخارج بدون مساعدتنا».

فقال له مارسيللوس:

– «اسمعني إذاً، وأنا سوف أشرح لك الأمر كله: أنا جندي روماني وقد وُلِدت في أسبانيا وتربيت على الفضيلة والأخلاق الجيدة. وتعلّمت أن أتّقي الآلهة وأن أؤدي واجبي، وقد ارتحلت في بلاد كثيرة، وكنت مشغولاً دائماً بعملي ولكنني لم أهمل دياناتي أبداً. فقد كنت أدرس في حجرتي كل كتابات الفلاسفة الإغريق والرومان، ولكن النتيجة أنني تعلّمت من هؤلاء الفلاسفة أن أحتقر الآلهة والإلاهات، لأن أخلاقيات هذه الآلهة ليست أفضل بل إنها أردأ مني أنا شخصياً.

ولقد تعلّمت من أفلاطون وشيشرون أن هناك إلهاً وَاحداً عظيماً، وأن من واجبي أن أُطيع هذا الإله، ولكن كيف أعرف هذا الإله وكيف أطيعه؟ وتعلّمت أيضاً أنني خالد. وأنني سوف أصبح روحاً بعد الموت ولكن كيف سيكون حالي عند ذاك؟ هل سأكون سعيداً أم شقياً بائساً؟

كيف أضمن السعادة في تلك الحياة الأخرى الروحية؟

وقد وصف الفلاسفة أمجاد هذه الحياة الخالدة في لغة جميلة ولكنهم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لم يُعطوا أية وصايا وتوجيهات للناس العاديين أمثالي تمكِّنهم من الوصول إلى هذه الحياة. وكانت شهوة قلبي أن أعرف المزيد عن هذه الأمور.

ولم يستطع الكهنة الذين يخدمون هذه الآلهة أن يخبروني بأي شيء، لأن كل اهتمامهم هو تتميم طقوس وعادات قديمة هم أنفسهم لم يكونوا يؤمنون بها.

ووصلت إلى الحقيقة أن الديانة القديمة ميتة، ولم يكن أحد من الناس ولا حتى كهنتها يهتمون بها كثيراً.

ولقد سمعت الكثير عن المسيحيين في البلاد المختلفة التي عشت فيها، ولكني كنت أحيا دائماً داخل المعسكر فلم تكن لديَّ الفرصة لأن أراهم.

وفي الحقيقة، أنا لم أهتم بأن أتعرَّف عليهم إلاَّ مؤخراً، لأني كنت أسمع الأخبار المعروفة عن سلوكهم اللاأخلاقي وعن رذائلهم التي يمارسونها في السر، وعن معتقداتهم المتصفة بروح الخيانة للدولة وكنت أصدِّق كل هذا.

ولكنني كنت في الكوليزيوم منذ أيام قليلة ماضية وهناك عرفت لأول مرة شيئاً عن المسيحيين، فلقد رأيت هناك المصارع ماسير Macer وهو إنسان شجاع ولم يكن للخوف أي معنى عنده، ولكنه وضع حياته بهدوء مفضلاً الموت عن أن يعمل شيئاً كان يؤمن بأنه خطأ.

ورأيت أيضاً شيخاً يقابل الموت بابتسامة سلامية.

والذي أثَّر في نفسي أكثر من هذا كله هو جماعة من الفتيات في ريعان شبابهن يستسلمن للوحوش المفترسة وترنيمة الانتصار على

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إنك تريد أن تعرف شيئاً عن الحياة الخالدة الأبدية. إن أناجيلنا تخبرنا عن ذلك، لأنها تعلِّمنا أن الإيمان بيسوع المسيح ابن الله ومحبة الله في هذه الأرض وخدمته تقودنا إلى أن نحيا معه في المجد والسعادة الأبدية في السماء. وترينا كيف نعيش في مرضاته هنا وكيف أننا سوف نكرِّمه ونسبِّحه في الحياة الأخرى الآتية.

وهذه الأناجيل تعلِّمنا أيضاً أن الموت وإن كان هو عدونا الأساسي والأول، ولكنه لم يعد لعنةً للمؤمنين ولكنه صار بركة، لأنه أن ننطلق ونكون مع المسيح فذاك أفضل جداً عن أن نبقى هنا، لأننا عندما ننطلق فإننا ندخل إلى حضرة ذاك الذي أحبنا وأسلم نفسه لأجلنا».

فقال مارسيللوس:

ـ «نعم، إذاً أرجوك إذا كان الأمر كذلك أن تعلن وتوضِّح لي هذا الحق، لأني بحثت عنه لسنوات طويلة، ولأجل هذا صليت إلى الكائن الأعلى الذي سمعت عنه، وأنتم تمتلكون ما أشتاق إلى معرفته، وكل هدف حياتي وغرضها يكمن في ذلك. إن أمامنا الليل بطوله، فأرجوك أن لا تتركني ولكن أخبرني عن هذا كله. هل أعلن الله الحقيقي كل هذه الأمور التي أجهلها»؟

وتلألأت دموع الفرح في عيون المسيحيين، وأخذ الشيخ هونوريوس يتمتم بكلمات الشكر لله بصلاة صامتة، ثم سحب أحد المخطوطات بعناية شديدة وقال:

ـ «هنا أيها الشاب المحبوب كلمة الحياة التي صارت إلينا من عند الله، وهي التي تَهَب السلام والفرح للإنسان، في هذه تجد ما تحتاج إليه نفس الإنسان، وفي هذه الكلمات الإلهية تجد ما لا يمكن أن تجده

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في أي مكان آخر.

وبالرغم من أن الذهن ممكن أن يظل يتأملها طوال الحياة، فإنه لا يصل إلى أن يسبر أعماق الحق المجيد المعلَن فيها، لأنه كلما يتعمق فيها كلما تنفتح أمامه أعماق أخرى من الفرح والنور».

وعند ذلك فتح هونوريوس الكتاب وبدأ يكلِّم مارسيللوس عن الرب يسوع، وأخبره عن الوعد الذي أعطاه الله للإنسان في جنة عدن عن ذلك الذي سوف يسحق رأس الحية وعن السلسلة الطويلة من الأنبياء الذين تنبأوا عن مجيئه، وعن الشعب المختار الذي حفظ الله من خلاله معرفة الحق لأجيال كثيرة، وعن الأعمال العجيبة التي رآها هذا الشعب المختار وشهد عنها.

ثم وصل في قراءته عن البشارة بابن الله وأنه سوف يُولد من عذراء، وقرأ له عن ميلاد الرب وطفولته وبداية ظهوره، ومعجزاته، وتعليمه. قرأ له كل ذلك من الإنجيل المقدس مع تعليق بسيط من عنده.

ثم وصف له المعاملة التي لاقاها الرب: الإهانة والاحتقار والاضطهاد والخيانة وتسليمه للحكم. ثم قرأ له عن موت الرب على الصليب وفوق الجلجثة.

وكان تأثير ذلك عجيباً على مارسيللوس. فقد كان يبدو كما لو أن نوراً أضاءَ له ظُلمة نفسه وذهنه.

قداسة الله التي تنفر من خطية الإنسان، وعدله الذي يتطلَّب القصاص، وصبره الذي احتمل الكثير، ورحمته التي دبَّرت طريقاً لخلاص خليقته من الدمار الذي جلبته على نفسها، وحبُّه العجيب الذي أسلم ابنه الوحيد الحبيب وجعله ينزل إلينا ويقدم نفسه ذبيحة من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أجل خلاصنا. كان كل هذا واضحاً وضوحاً شديداً.

وعندما وصل هونوريوس إلى نهاية القصة الحزينة للجلجثة ووصل إلى صراخ المسيح على الصليب: إلهي إلهي لماذا تركتني؟ والتي تبعها صراخ النصرة من الرب: قد أُكمل! انتبه هونوريوس أن مارسيللوس يجهش ببكاء شديد. وعندما نظر إليه من خلال دموعه التي غطّت عينيه، وجد أن قامته العملاقة، وقد انحنت، وجسده كله ينتفض بانفعال عاطفي شديد.

وقال مارسيللوس متمتماً:

– «يكفي الآن يكفي الآن. دعني أفكر في هذا»:

إلى الذي أحبنا بدمه طهّرنا

ودَفَنَ مارسيللوس وجهه بين راحتيه وأخذ في البكاء. ورفع هونوريوس عينيه إلى السماء وأخذ يصلي.

وبقي الاثنان وحدهما لأن باقي الإخوة غادروا المكان بهدوء.

وكان ضوء مشعل صغير في إحدى فتحات الحائط ينير المكان بنور خافت. وبقي الاثنان صامتين هكذا لمدة طويلة.

وأخيراً رفع مارسيللوس رأسه وقال:

– «إنني أحس أنني أنا أيضاً تسببت في موت الإله القدوس. أرجوك أن تقرأ لي المزيد من كلمة الحياة، لأنني أؤمن أن حياتي كلها معلّقة عليها».

فأعاد هونوريوس قراءة حادثة الصليب ودَفْن الرب يسوع وقيامته في اليوم الثالث وصعوده إلى يمين الله، وقرأ له أيضاً عن حلول الروح القدس في يوم الخمسين، وتعميد المؤمنين إلى جسد واحد، وعن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

حضور الروح الدائم، وعن كيف أنه جعل جسد المؤمنين هيكلاً له، وعن عمل الروح العجيب في تمجيد اسم الرب يسوع وإعلان المسيح للخطاة التائبين.

ولم يتوقف عند ذلك ولكنه أراد أن يملأ نفس مارسيللوس بالسلام، فأخذ يقرأ له كلمات الرب يسوع التي تدعو الخطاة ليأتوا إليه، وعن وعد الرب بالحياة الأبدية التي ينالها الخاطئ عندما يقبل الرب يسوع كرب ومخلِّص. ثم قرأ له عن الميلاد الجديد وعن الحياة الجديدة وعن وعد الرب يسوع بالمجيء ثانية والتقائه في السحاب بشعبه الذين اغتسلوا بدمه.

وعند ذلك قال مارسيللوس:

– «إن هذه هي كلمة الله، إنها صوت من السماء وقلبي يستجيب لكل كلمة سمعتها وأنا أعلم أن هذا هو الحق الأبدي، ولكن كيف أمتلك هذا الخلاص؟

لقد زالت الغشاوة عن عينيَّ الآن، وعرفت أخيراً، وقد كنت أظن قبل ذلك أنني رجل فاضل وبار ولكنني أمام هذا القدوس الذي سمعت عنه فإن نفسي تنزل إلى التراب، وأنا أرى أنني مجرم بالنسبة إلى قداسته، وأني مُدان وهالك فكيف يمكنني أن أخلص؟»

– «لقد جاء المسيح يسوع إلى العالم لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك».

– «نعم ولكن كيف أقبله»؟

– «إن الكلمة حاضرة أمامك في فمك وفي قلبك إنها كلمة الإيمان التي نكرز بها، لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أن الرب أقامه من الأموات فإنك تخلص، لأن القلب يؤمن به للبر والفم يعترف به للخلاص».

– «ولكن، هل لا يوجد أي شيء يجب أن أفعله»؟

– «بالنعمة أنتم مخلَّصون، بالإيمان، وذلك الخلاص ليس منكم إنه عطية الله، ليس من أعمال حتى لا يفتخر إنسان، إن أجرة الخطية هي موت، ولكن عطية الله هي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا».

– «ولكن هلاّ توجد أية ذبيحة أستطيع أن أقدمها»؟

– «إن الرب قدَّم نفسه ذبيحة واحدة عن الخطية إلى الأبد، وهو الآن جالس عن يمين العظمة في السموات، وهو قادر أن يخلِّص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين يشفع فيهم».

– «آه! إذاً، والآن إذ قد تجرأت أن أقترب منه فأرجوك علِّمني الكلمات التي تقودني إليه».

وفي هذا المكان المظلم المنعزل، وهذا الصمت المهيب، ركع هونوريوس على ركبتيه، وانحنى مارسيللوس بجواره. ورفع الشيخ الوقور صوته بالصلاة، وأحس مارسيللوس كما لو أن روحه قد ارتفعت إلى السماء، إلى حضرة المخلِّص نفسه بقوة هذه الصلاة الحارة الواثقة المؤمنة. وكان لكلمات الشيخ صدى عميق في نفسه وروحه؛ وفي ضعفه الشديد وحيرته وضع كل احتياجه بين يدي رفيقه الذي يستطيع أن يصلِّي عنه بطريقة يعجزعنها حالياً.

ولكن أخيراً ازدادت أشواقه جداً وامتلأ بالإيمان، إيمان حقيقي، وتشدَّدت روحه جداً حتى إنه عندما انتهى هونوريوس من الصلاة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

انفكت عقدة لسانه وصرخ من أعماق قلبه:

- «يا ربي يسوع إني أؤمن فأعِن يا سيدي عدم إيماني».

وأصبح الوسيط الوحيد بين الله والناس - الرب يسوع - له وجود حقيقي حي في إيمانه، وكانت كلمات الرب يسوع تتردَّد في أعماق نفسه، وقد قبلها وآمن بها وامتلأت نفسه بالفرح:

[الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني له حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة ... وأنا أُعطيها (خرافي) حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي.] (يو ٥:٤٢ و١٠:٢٨)

ومرت الساعة تلو الساعة، ولكن مَنْ يستطيع أن يصف كيفية عبور نفس إنسان من الموت إلى الحياة؟ يكفي أنه عندما كان نور الفجر يشرق على وجه الأرض من فوق، كان هناك نور فجر يوم مجيد يشرق على نفس وروح مارسيللوس في السراديب من أسفل.

لقد امتلأت نفسه دسماً وارتوى تماماً، وسقط عنه حمل خطيته، وسلام الله بالرب يسوع المسيح ملأ كيانه كله.

لقد أصبح سر المسيحيين مِلكاً له وأصبح هو نفسه عبداً بإرادته للرب يسوع المسيح.

وأصبح في مقدوره الآن أن يرنِّم مع إخوته في الرب:

إلى الذي أحبنا بدمه طهَّرنا

له المجد والسلطان إلى أبد الآباد. آمين.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل السادس

سحابة من الشهود

[«في الإيمـــان مـــات هؤلاء أجمعـون.»
(عب ١١:١٣)]

وسرعان ما تعلَّم هذا المؤمن الجديد الكثير عن المسيحيين. وبعد فترة قصيرة قام مارسيللوس وسار مع هونوريوس لكي يُريه طبيعة هذا المكان الذي كانوا يعيشون فيه.

وكان الذين رآهم في الكنيسة الصغيرة في أول مرة لا يمثلون إلاَّ جزءاً صغيراً من هؤلاء الذين يحيون في السراديب. فقد كان عدد سكان السراديب يصل إلى عدة آلاف، وكانوا يعيشون في جماعات صغيرة متفرقة على امتداد هذه السراديب. وكان لكل جماعة منها وسيلتها في الاتصال بالمدينة من فوق.

وسار لمسافة بعيدة مع هونوريوس وكان مندهشاً لأعداد الناس التي كان يقابلها. وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن عدد المسيحيين كبير، ولكنه لم يكن يظن أن هذه النسبة الكبيرة منهم لها الثبات والجَلَد على اختيار الحياة في داخل هذه السراديب.

وكان اهتمامه بالأموات لا يقل عن اهتمامه بالأحياء. لأنه بينما كان يسير كان يقرأ الكلمات المكتوبة على قبورهم، وكان يجد فيها

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

نفس الإيمان القوي والرجاء العظيم. وكان يحب قراءة هذه الشواهد، وكان هونوريوس أيضاً يجد مسرَّة في هذه التذكارات المقدَّسة مما جعله مرافقاً ممتازاً لمرسيللوس في جولته هذه.

وقال هونوريوس:

– «انظر، هنا يرقد شاهد للحق».

وأخذ يقرأ:

[بريميتوس، يرقد في سلام، بعد عذابات كثيرة. الشهيد الشجاع. عاش ثماني وثلاثين سنة. وأقامت زوجته هذا الشاهد لزوجها الحبيب والمستحق كل كرامة].

وقال هونوريوس:

– «إن هؤلاء الرجال يعلِّموننا كيف ينبغي أن يموت الإنسان المسيحي، وهذا آخر قد تألم مثل بريميتوس»:

[بافلوس، مات تحت التعذيب الشديد لكي يحيا في النعيم الدائم].

قال هونوريوس:

– «وهناك مقبرة سيدة نبيلة. وهي تُظهر مقدار الثبات والجَلَد اللذين يهبهما الرب يسوع حتى لأضعف أتباعه في وقت احتياجهم»:

[كليمنتيا. تعذَّبت، ماتت،
ترقد، وسوف تقوم]

وقال هونوريوس:

– «إن الدعوة عندما تأتي إلى الإنسان ليجتاز الموت فإن الروح تغادر الجسد ولتوها تصير مع الرب. ومجيء الرب الموعود به والذي قد يحدث في أية لحظة، هو الرجاء المبارك لكل مسيحي متعلِّم. لأن الرب نفسه سوف ينزل من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

السماء بصوت عظيم وصوت رئيس ملائكة وبوق الله والأموات في المسيح يقومون أولاً ونحن الأحياء الباقين سوف نُخطف معهم في السحاب لملاقاة الرب في الهواء وهكذا نكون كل حين مع الرب».

وقال الشيخ:

– «وهنا يرقد كونستانس الذي أظهر أنه ثبت في الرب مرتين لأنه جاز التجربة مرتين. ففي المرة الأُولى أعطوه سُمًّا ولكن لم يكن للسم أية قوة عليه فقتلوه بحد السيف. وكان مكتوباً على قبره»:

[لم تجرؤ جرعة السم المميتة أن تهب لكونستانس الإكليل الذي سُمح للحديد أن يهبه إياه].

وهكذا سارا معاً يقرآن الكتابات التي تظهر على كل جانب. وكانت مشاعر جديدة تغمر نفس مارسيللوس عندما كان يقرأ هذه الكتابات المجيدة. وكان هذا يُعتبر بالنسبة إليه كتاريخ لكنيسة المسيح. هنا كانت أعمال الشهداء تظهر أمامه بكلمات ملتهبة. وكانت الصور البسيطة التي تزين كثيراً من المقابر تحمل معها إليه مشاعر رقيقة من الشفقة لا تستطيع أعظم أعمال الفنانين المهرة أن تصنع مثلها. وكانت الحروف المحفورة بطريقة بدائية وأخطاء الهجاء والكتابة وأخطاء قواعد اللغة التي كانت تميِّز معظم الكتابات، تؤكد بطريقة ملموسة أن كنوز الإنجيل إنما هي للفقراء والمساكين أيضاً: "لأنه ليس كثيرون حكماء ليس كثيرون أقوياء قد دُعوا، ولكن الإنجيل قد كُرز به للمساكين." (انظر ١كو ١:٢٦-٢٩)

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وفي كثير منها كان يوجد مونوجرام(*) يتكون من الأحرف الأُولى لاسم المسيح Χριστος Ραββονι المسيح الرب. ☧

وحرف X ، P يرتبطان بطريقة معينة تشير إلى رمز خاص للمسيح:

وبعضها يحمل أغصان النخيل رمز النصرة والخلود، والتي تمثل هذه الأغصان المجيدة التي سوف يلوح بها أناس بلا عدد يحيطون بالعرش، والبعض الآخر يحمل علامات أخرى.

أشار مارسيللوس متسائلاً إلى صورة سفينة:

- «ما هذا»؟

- «إنها تُظهر كيف أن النفس المعذَّبة تبحر من الأرض إلى ميناء الراحة».

- «وما معنى هذه السمكة التي أراها دائماً»؟

- «إن السمكة تُستخدم لأن الحروف التي تكوِّن اسمها في اليونانية هي الحروف الأُولى التي تمثِّل كل مجد ورجاء المسيحيين».

فحرف:	I	هي بداية اسم	Ιησους	أي يسوع
	X	هي بداية اسم	Χριστος	المسيح
	Θ	هي بداية اسم	Θεος	الله
	Y	هي بداية اسم	Υιος	ابن
	Σ	هي بداية اسم	Σωτηρ	مخلِّص

وهكذا فإن السمكة باسمها Ιχθυς تُشير إلى «يسوع المسيح ابن

(*) monogram علامة ترمز إلى شخص ما وتتألف من أحرف اسمه الأولى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الله المخلِّص».

– «وماذا تعني هذه الصورة التي أراها كثيراً، التي تظهر فيها سفينة وحيوان بحري ضخم»؟

– «إنها تمثل قصة يونان النبي، وهو نبي الله، وأنت لم تعرف عنه شيئاً حتى الآن».

ثم حكى له هونوريوس قصة يونان وكيف أن نجاة يونان من بطن الحوت تُذكِّر المسيحيين بالقيامة من ظلام القبر. وهذا الرجاء المجيد بالقيامة من الأموات هو مصدر عزاء عظيم لنا ونحن نحب أن نجعله أمام أعيننا دائماً بمختلف الرموز.

وهنا أيضاً رمز آخر يشير إلى هذا الحق: الحمامة التي تحمل غصن الزيتون إلى نوح. وأخذ يحكي لرفيقه قصة الطوفان حتى يستطيع مارسيللوس أن يفهم معنى صورة الحمامة. ولكن لا يوجد بين كل الرموز المستخدمة ما هو أكثر وضوحاً من هذا، وأشار بيده إلى صورة إقامة لعازر من الموت.

قال هونوريوس:

– «وهناك أيضاً يوجد الهلب وهو علامة الرجاء. لأنه بينما يسير المسيحي وسط أعاصير الحياة التي تشبه الأمواج، فإنه يمسك بمنزله السماوي.

وهناك ترى صورة الديك وهي رمز للسهر، لأن الرب قال لنا: اسهروا وصلُّوا، وهناك أيضاً صورة حَمَل وهي ترمز للبراءة والرقَّة، وتذكرنا بحَمَل الله الذي حمل خطايانا والذي بذبيحته نلنا الحياة الأبدية والغفران. ومرة أخرى نرى أيضاً صورة الحمامة وهي مثل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الحَمَل أيضاً تمثّل البراءة، وتراها هنا أيضاً وهي تحمل غُصن الزيتون رمز السلام.

وإنك ترى كذلك الحرفين A و Ω، الحرف الأول والأخير في الأبجدية اليونانية، وهي تشير إلى المخلّص الذي قال عن نفسه: "أنا هو الألف والياء." (رؤ ١ : ١١)

وهناك صورة إكليل وهي تشير إلى الإكليل غير المضمحل الذي سيهبه لنا الرب الحاكم العادل.

وهكذا فإننا نحب أن نحيط أنفسنا بكل ما من شأنه أن يُذكّرنا بالفرح المُعَدّ لنا. ونحن إذ نتعلم من هذه الرموز فإننا ننظر من خلال هذه الظلمة المحيطة بنا ونرى بالإيمان نور المجد الأبدي».

قال مارسيللوس وقد توقّف:

– «انظر! هنا أعتقد أن هذا الأمر مناسب لحالتي. ويبدو كأنه نبوة. لأنه ربما أُدعى أنا أيضاً لكي أُقدّم شهادتي عن المسيح، فلعلي أُوجد أميناً عندئذٍ»:

[في المسيح. في زمان الإمبراطور هادريان.

ماريوس، ضابط حربي شاب، عاش لزمان،

وسُفِكَ دمه من أجل المسيح، ومات في سلام.

وَضَع هذا الشاهد أصدقاؤه بالدموع والخوف].

فقال هونوريوس:

– «"في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يو١٦ : ٣٣). هكذا يؤكد لنا المسيح وبينما يحذرنا من الشر فإنه يعزينا بوعده بالمعونة الإلهية. وفيه نجد نعمة كافية لنا».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وقال مارسيللوس:

- «لعل مثال هذا الجندي الشاب هو لأجلي. ولعله يُسفك دمي من أجل المسيح مثله. وليتني أكون أميناً حتى الموت مثله لأن الرقاد هنا بجوار إخوتي هؤلاء وعلى قبري شاهد مثل هذه الشواهد يُعتبر بالنسبة لي أكثر مجداً من نصب تذكاري عظيم مثل نصب سيسليا ميتاللا».

واستمر الاثنان في سيرهما.

وقال مارسيللوس:

- «ما أحلى موت الإنسان المسيحي. إن الموت فَقَدَ كل رعبته وصار بالنسبة إليه رقاداً مباركاً، بينما روحه تحيا مع الرب في انتظار القيامة. وبدلاً من أن يثير الموت مشاعر الخوف والرعبة فإنه يثير مشاعر الانتصار والراحة».

وهذا شاهد آخر على أحد القبور:

[هذا مكان رقاد هلبيس.

زوتيكوس يرقد هنا.

أسيلوس يرقد في المسيح.

مارتيريا ترقد في سلام.

فيداليا ترقد في سلام المسيح.

أنيسيفوروس. روح حلوة. في مكان الأفراح].

وقال هونوريوس:

- «إن بعض هذه الكتابات توضِّح صفات الإخوة الراحلين. فمثلاً انظر هذه»:

[مكسيموس. الذي عاش ثلاثة وعشرين عاماً

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وكان صديقاً لكل إنسـان].

[في المسيح في الخامس من نوفمبر رقد جورجونيوس
الذي كان صديقاً للجميع ولم يُعادِ أحداً قط].

واستمر هونوريوس في شرحه قائلاً:

- «يوجد هنا مَنْ يخبرنا عن حياته الخاصة وتجاربه الإنسانية»:

[من سيسليوس إلى زوجته سيسليا بلاسندا
الزوجة ذات الذكرى العطرة
والتي عشت معها عشر سنوات بدون أي خلاف.
في الرب يسوع المسيح ابن الله المخلّص].

[المقدَّسة في المسيح الله القوي.
فيتاليس دُفنت في يوم السبت في أغسطس
وعمرها خمسة وعشرون عاماً وثمانية أشهر.
عاشت مع زوجها عشر سنوات وثلاثين يوماً.
ترقد في المسيح الذي هو البداية والنهاية].

[إلى دومنينا زوجتي الحبيبة والطاهرة،
التي عاشت ستة عشر عاما وأربعة شهور،
وتزوجت لمدة سنتين وأربعة شهور وتسعة أيام
والتي لم أستطع أن أحيا معها أكثر من ستة شهور بسبب أسفاري
المستمرة، وأظهَرَت حبها في هذه الأيام القصيرة.
لم يحب أحدٌ الآخر كما أحببنا بعضنا.
دُفنت في الخامس عشر من شهر يونية].

[إلى قلوديوس المخلص والعطوف الذي أحبني

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وهو عاش خمساً وعشرين سنة في المسيح].

وأشار مارسيللوس قائلاً:

– «وهنا تظهر محبة الآباء» وأخذ يقرأ:

[من لورانس إلى ابنه الحلو ساويرس

الذي حملته الملائكة في السابع من يناير].

وأشار أيضاً: «وهنا تذكار لزوجة»:

[دوميتيوس يرقد في سلام

وقد أقامت هذا الشاهد. ليئة. Lea].

وقال هونوريوس:

– «نعم، لأنه بالإيمان بالمسيح فإن الإنسان المؤمن يأخذ طبيعة جديدة إلهية بواسطة الروح القدس. والروح القدس يزرع في داخله محبة الله. وهذه المحبة تجعل مشاعره أكثر رقة نحو الأصدقاء والأقارب. ولكن طبيعة آدم القديمة ومشاعره تبقى في الإنسان ولا يمكن تغييرها».

وبينما كانوا سائرين، فإنهم كانوا يشاهدون كثيراً من هذه الشواهد التي تُظهر مثل هذا الحب الرقيق للأقارب:

[كونستانسيا، ذات الجمال الباهر واللطف

عاشت ثماني عشرة سنة وستة أشهر وستة عشر يوماً

كونستانسيا ترقد في سلام].

[سيمبليكوس، صاحب الذكرى الطيبة

عاش ثلاثة وعشرين عاماً، وثلاثة وأربعين يوما في سلام

وقد أقام أخوه هذا التذكار].

[إلى أدسرتور ابننا العزيز والحلو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

البريء والذي لا مثيل لــه.

الذي عاش سبع عشرة سنة وستة أشهر وثمانية أيام.

وقد أقام والداه هذا التذكار].

[إلى يانيواريوس الابن الحلو والطيب

المكرم والمحبوب من الجميع، الذي عاش

ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً].

[من الوالدين إلى لورينيا الذي هو أحلى من الشهد

يرقد في سلام].

[إلى الروح الطاهرة، إينوسنس،

الذي عاش ثلاث سنوات].

[دوميتيانوس. روح بريء يرقد في سلام].

[الوداع يا سابينا

عاشت ثماني سنوات وثمانية أشهر واثنين وعشرين يوماً

نرجو لكِ حياة حلوة في الله].

[في المسيح: مات في شهر سبتمبر بومبيانوس البريء. الذي عاش ست سنوات وتسعة شهور وثمانية أيام وأربع ساعات. ويرقد في سلام].

[إلى ابنهم المستحق، كالبورينوس أقام والداه هذا التذكار

عاش خمس سنوات، وثمانية أشهر، وعشرة أيام

ورحل في سلام في الثالث عشر من يونية].

وقال مارسيللوس:

- «لقد وضعوا علامات السلام والمجد على شاهد هذا الطفل».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وأشار إلى مقبرة أحد الأطفال وكان محفوراً على لوحتها حمامة وإكليل المجد مع هذه الكتابة:

[ريسبكتوس الذي عاش خمس سنوات وثمانية شهور. يرقد في سلام].

– «وهذا النصب الآخر يحمل فرع نخيل علامة النصرة».

فقال له هونوريوس:

– «نعم، لأن المخلِّص قال دعوا الأولاد يأتون إليَّ».

وجذب انتباههم أيضاً الشواهد المحفورة على قبور النساء اللواتي كُنَّ زوجات للمبشرين المسيحيين:

[زوجتي لورينتيا صنعت لي هذه المقبرة.

وكانت دائماً خاضعة لي، ومكرَّمة ومُخلصة].

[عاش الأسقف ليو ثمانين سنة].

[هنا مكان باسيليوس الشيخ وزوجته فيليسيتياس

وقد صنعوا هذا المكان لأنفسهما].

[كانت الابنة السعيدة للشيخ جابينوس.

هنا ترقد سوسنة.

ترقد مع والدها في سلام].

[كلوديوس اتيكيانوس، مبشر .

وزوجته كلوديا فيليسيسما].

وقال مارسيللوس:

– «إنني أرى هنا مقبرة كبيرة، فهل دفن فيها اثنان؟»

فقال الشيخ:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «نعم. وهي تُسمَّى **bisomum** ويرقد فيها اثنان. اقرأ هذه الكتابة:

[المقبرة المزدوجة لـ سابينوس
وقد صنعها لنفسه في حياته.
في مقابر بالبينيا في السرداب الجديد].

وقال هونوريوس:

- «أحياناً يُدفن ثلاثة في نفس المقبرة وفي أماكن أخرى ستجد أعداداً كبيرة مدفونة في نفس المقبرة. لأنه عند اشتداد الاضطهاد فإنه لا يكون ممكناً دائماً أن نعطي لكل شخص الاهتمام الذي نبتغيه.

وهناك لوح يوضِّح مكان دفن عدد كبير من الشهداء الذين لا نعرف أسماءهم ولكن تذكارهم المبارك».

وأشار الشيخ إلى لوحة مكتوب عليها:

[مارسيللا وخمسمائة وخمسون شهيداً آخر للمسيح].

وقال مارسيللوس:

- «وهنا يوجد شاهد أطول وكلماته سوف تجد لها صدىً عميقاً في قلوبنا» وبتأثر شديد أخذا يقرآن:

[في المسيح. ألكسندر ليس ميِّتاً، ولكن يحيا فوق النجوم.
ويستريح جسده في هذه المقبرة. أنهى حياته في زمان الإمبراطور أنطونين، الذي بالرغم من أنه كان يعترف بالمنفعة العظيمة التي تنتج من خدماته، فإنه كافأه بالبغضة بدلاً من الحب. وبينما كان راكعاً على ركبتيه وكان يقدم الذبيحة لله الحي قادوه إلى الموت.
يا للأوقات الحزينة! التي فيها لا أثناء الطقوس المقدسة والصلاة، ولا حتى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في المغاور يمكن أن نكون في أمـــان.

ماذا يمكن أن يكـون أردأ من حياة مثل هـذه؟

ولا مـوت مثـل هـذا؟ حيث لا يمكـن للإنسـان أن يقـوم بدفـن أصدقائـه ومعارفـه!

ولكنهـم بعد قليل سيضيئون في السماء.

إنه بالكاد يحيا مَنْ عاش في الأزمنة المسيحية].

وقـال هونوريـوس:

ـ «وهـذا مكـان راحـة أخ محبـوب لا تـزال ذكـراه حيـة في جميـع الكنائس، ونحن سنقيم الأغابي حـول هـذه المقبرة في ذكـرى ميلاده. وفي هـذا التذكـار تسقط كـل الحواجز بين الطبقـات المختلفـة والفـوارق بـين الأشقاء والقبائل المختلفـة والألسنة المختلفة والناس. فإننا كلنا إخـوة في المسيح، لأننـا نتذكـر دائمـاً أنـه كمـا أحبنـا المسـيح فإننـا يجـب أن نحـب بعضنا بعضـاً».

وفي هـذه الجولـة كـان أمـام مارسيللوس فرصـة متسـعة لكـي يشـاهد وجود هذا الحـب الأخـوي الـذي أشـار إليـه هونوريـوس، لأنـه قـابل رجـالاً ونسـاءً وأطفـالاً مـن كـل صنـف ومـن كـل سن. رجـال وصلـوا إلى أعلـى الدرجـات في رومـا، يعيشـون حيـاة مملـوءة وِدًّا مـع آخريـن لا يزيـد مستواهـم عـن مستوى العبيـد.

وهـؤلاء الذيـن كـانوا مـن قبـل مضطَهديـن قسـاة، يحيـون في وحـدة مفرحة مـع الذيـن كـانوا يبغضونهم.

الكـاهن اليهـودي وقـد أُعتـق مـن نـير النـاموس الـذي كـان عـاجزاً عـن تتميمـه والـذي كـان بمثابـة "خدمـة مـوت" لـه، يسـير الآن يـداً بيـد مـع

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الإنسان الأممي الذي كان يبغضه من قبل.

واليوناني عاين جهالة الإنجيل وهي تتحول إلى حكمة لانهائية.

والاحتقار الذي كان يملأ نفسه نحو أتباع يسوع تحول إلى تعاطف حميم. وكانت الأنانية والطموح والكبرياء والحسد وكل شهوات الحياة الإنسانية تبدو كما لو أنها قد هربت من أمام القوة القاهرة التي للحب المسيحي.

وكان إيمان المسيح يحل في قلوبهم بكل ملئه وكان تأثيره المبارك واضحاً بطريقة لم يكن من الممكن معاينتها في أي مكان آخر. ولم يكن ذلك سببه تغيُّر في طبيعة أو قوة هذا الإيمان، ولكن كان السبب هو أن الاضطهاد العام الذي كان يضغط عليهم جميعاً قد عرّاهم من كل ملكية أرضية وقطعهم عن التجارب العالمية والطموح العالمي، وبقوة محبة المسيح التي تربطهم والتعاطف الناتج عن الآلام المشتركة، فإنهم صاروا قريبين من بعضهم البعض جداً.

وقال هونوريوس لرفيقه:

- «إن عبادة الله الحق تختلف عن كل العبادات الأُخرى، لأن الإنسان الوثني يدخل إلى مَعْبدِهِ ومن خلال الكاهن غير الطاهر يقدم ذبائح غير طاهرة للشيطان الذي لا يستطيع أن يرفع خطايا أي إنسان.

ولكن بالنسبة لنا فإن المسيح قدَّم نفسه بدون أية خطية إلى الله، ذبيحة واحدة عن كل الخطايا إلى الأبد. وكل واحد من أتباعه يستطيع الآن أن يتقدم إلى الله بالمسيح رئيس الكهنة المبارك في السموات. وقد دعا المسيح ملوكاً وكهنة لله أبيه.

لذلك يُعتبر هذا أمراً غير حيوي بالنسبة لعبادتنا سواء تركوا لنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كنائسنا أو طردونا منها بعيداً عن وجه الأرض، لأن السماء هي عرش الله، والعالم هو هيكله، وكل واحد من أولاده يستطيع أن يرفع صوته من أي مكان وفي أي وقت ليعبد الله الآب».

استمرت رحلة مارسيللوس لزمن طويل ولمسافة بعيدة، وبالرغم من أنه كان يتوقع وجود هذه المسافة البعيدة داخل السراديب فإنه اندهش من طولها. وبالرغم من أنه قطع كثيراً منها فإنهم أخبروه أن كل هذا ما هو إلاَّ جزء صغير من الامتداد. وكان متوسط ارتفاع الممرات حوالي ثمانية أقدام ولكنه في بعض الأماكن يصل إلى اثني عشر أو خمسة عشر قدماً. وبعد ذلك الكنائس المتناثرة والحجرات التي صنعوها بتوسيع الممرات أعطت فراغاً فسيحاً للساكنين فيها وجعلت من الممكن لهم أن يعيشوا ويتحركوا بحرية كبيرة.

وكان يوجد في بعض الأماكن فتحات ضيقة في السقف كان ينفذ منها شعاع ضئيل من الضوء الخارجي. وكانت هذه الأماكن تُستخدم كأماكن للراحة ولكن ليس للسكن. وكان وجود ضوء النهار المبارك بالرغم من ضعفه مصدر بهجة شديدة، وكان يخدم لدرجة معينة في تخفيف حدة الظلمة الداخلية. ورأى مارسيللوس بعض الممرات التي كانت مبنية وتمثل نهاية مفاجئة للممر، ولكنه رأى أن هناك تفرعات جانبية تلف وتدور إلى الممرات الأُخرى:

فسأل مارسيللوس:

ـ «ما هذا المكان الذي أُغلق بالمباني هكذا»؟

فقال هونوريوس:

ـ «إنها مقبرة رومانية وأثناء حفر الممر اصطدم بها العمال فتوقفوا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وبنوا هذا الحائط وحفروا من حوله وليس ذلك خوفاً من إتلاف المقبرة، ولكن لأنه في الموت كما في الحياة يرغب الإنسان المسيحي في تنفيذ وصية الرب: "اخرجوا من وسطهم واعتزلوا " (٢كو ٦:١٧)».

وقال مارسيللوس:

- «إن الاضطهاد يشتد حولنا ويغلق علينا هنا فإلى متى يظل شعب الله مشرَّداً؟ إلى متى يضغط علينا العدو؟».

فرد عليه هونوريوس:

- «إن هذا هو صراخ الكثيرين منَّا. ولكن من الخطأ أن نتذمَّر ونشكو لأن الرب صالح نحو شعبه. وقد عشنا لأجيال في الإمبراطورية ونحن في ظل القانون وبدون أية معاملة سيئة. وحقيقة أننا واجهنا أحياناً اضطهادات شديدة مات فيها الآلاف تحت العذاب الشديد، ولكنها كلها عبرت وتركت وراءَها الكنيسة في سلام.

وكل الاضطهادات التي عانيناها ساعدت على تطهير قلوب شعب الله وعلى إظهار إيمانهم أن الله يعرف ما هو صالح لنا ونحن في يديه، وهو لا يدعنا نُجرَّب فوق ما نحتمل. ولكن فلنكن متيقظين ولنسهر ونصلي يا مارسيللوس، لأن العاصفة الحالية تقول لنا صراحةً أن اليوم العظيم والمخوف الذي تنبأ عنه الأنبياء عن العالم يقترب».

وهكذا سار مارسيللوس مع هونوريوس يتحدثان.

وكان مارسيللوس يتعلم في كل ساعة أموراً جديدة عن التعاليم الخاصة بسر الله وخبرة أولاد الله. وكان دليل حبهم وطهارتهم وثباتهم وإيمانهم يغوص عميقاً عميقاً في داخل نفسه، والخبرة التي عاشها لم تكن مؤقتة، بل كان كل إدراك جديد يقوي رغبته في الاتحاد

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بإيمان ونصيب شعب الله.

وقبل حلول يوم الرب التالي اقتبل العماد. وتعمَّد لموت المسيح باسم الآب والابن والروح القدس.

وفي صباح يوم الرب جلس حول مائدة الرب مشاركاً باقي المسيحيين. وهناك كانوا يعيِّدون هذا العيد البسيط والحار لتذكار موت الرب وقيامته حول مائدة الرب، والذي يبشر فيه المسيحيون بموت الرب يسوع منتظرين مجيئَه.

وصلى هونوريوس صلوات الشكر.

اشترك مارسيللوس لأول مرة في حياته في الخبز والخمر: جسد الرب المصلوب ودمه الأقدسين.

+ «وبعد أن سبَّحوا (بترنيمة)، خرجوا» (راجع مت ٢٦:٣٠، مر ١٤:٢٦).

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل السابع

الاعتراف بالإيمان

«وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون.»
(٢ تي ٣:١٢)

مرت أربعة أيام منذ غادر الجندي الشاب حجرته. كلها أيام مشحونة بالأحداث الخطيرة في حياته، أيام في منتهى الأهمية بالنسبة إليه، وكان يتوقف عليها إما السعادة الدائمة أو الحزن الدائم. ولكن بَحْث هذه النفس التائقة إلى الحق لم يكن عبثاً. فقد وُلِدَ جديداً من الروح القدس.

وقد وطد عزمه على اتخاذ القرار الحاسم في حياته:

ففي ناحية توجد الشهرة والمجد والثروة، وفي الناحية الأُخرى الفقر والعَوَز والضيق. ولكنه كان قد قر اختياره، وثبَّت وجهه نحو الأمر الثاني بدون أي تردد. لقد فضَّل أن يختار أن يُضطهد مع شعب الله عن أن يكون له تمتع وقتي بالخطية (راجع عب ١١:٢٥).

وعند عودته إلى المعسكر دخل إلى القائد وقدم تقريراً عن نفسه وقال له إنه كان بين المسيحيين، وأنه لن يستطيع أن يستمر في مهمته، وأنه مستعد لتحمُّل تبعات موقفه. فأمره القائد وهو متجهم بالعودة إلى موقعه في المعسكر.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وفي حجرته جلس في تأمُّل عميق يفكر في نتيجة هذا كله.

وقاطعه دخول صديقه لوكيوللوس. وحيَّاه صديقه بحرارة ولكنه كان قلقاً عليه. وقال له:

– «لقد سمعت ما قاله القائد لتوي. وقد أرسلني إليك برسالة ولكن أرجوك أخبرني أولاً عن هذا الذي فعلته».

فحكى له مارسيللوس كل ما حدث معه من ساعة خروجه وحتى عودته إلى المعسكر ولم يُخْفِ عنه شيئاً قط.

وكانت جدِّيته العميقة توضح كم كان عمل الروح في داخله قوياً وصادقاً ومستمراً، وأخيراً حكى له عن محادثته مع القائد:

– «لقد دخلت الحجرة وأنا شاعر بأهمية الخطوة التي سأتخذها. لقد كنت في سبيلي إلى اتخاذ موقف يتسم بالخيانة لأخلاقياتنا. جريمة ليس لها عقاب سوى الموت. ولكني لا أستطيع سوى ذلك. ولقد استقبلني القائد في أول الأمر بالترحاب ظناً منه إني قد صادفت نجاحاً هاماً في مهمتي. وقد أخبرته أنني منذ غادرت المعسكر وأنا كنت بين المسيحيين وأنني دُفعت لتغيير مشاعري نحوهم بسبب ما رأيته منهم.

لقد كنت أعتقد أنهم أعداء للدولة ومستحقون الموت ولكني وجدت أنهم مواطنون مخلصون للإمبراطور وأنهم أُناس فضلاء. وإني لا أستطيع أن أستخدم سيفي ضد أُناس مثل هؤلاء. وبدلاً من أن أضطر لاستخدامه ضدهم فأنا أتركه».

فقال له صديقه:

– «إن مشاعر الجندي ليس لها الحق في التدخل في واجبه».

– «ولكن واجباتي نحو الله الذي خلقني أقوى من واجباتي نحو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أي إنسان. وقد قال لي القائد: هل جعلك تعاطفك مع المسيحيين مجنوناً؟ هل لا تعلم أن هذه خيانة؟، فانحنيت له وقلت: إنني أتحمل النتائج، فصرخ فيَّ بشدة: إنك شاب مندفع. اذهب إلى موقعك وسوف أُرسل إليك قراري. وهكذا حضرت إلى هنا لتوِّي وبقيتُ هنا منتظراً الحكم الصادر ضدي».

واستمع لوكيوللوس إلى كل ما ردده مارسيللوس بدون أية كلمة أو مقاطعة. وكان انطباع من الدهشة والحزن يرتسم على وجهه يعبِّر عمَّا في نفسه، وتكلم بصوت حزين، بعدما انتهى مارسيللوس، قائلاً:

– «وماذا يكون هذا الحكم الذي تعلمه أنت وأنا جيداً؟ إن النظام الروماني الصارم حتى في الأوقات العادية لا يمكن العبث أو الاستهتار به. فكم وكم الآن ومشاعر الحكومة مُثارة جداً ضد هؤلاء المسيحيين. وإنك إذا صممت على الاستمرار في وضعك هذا فإنك سوف تسقط حتماً».

– «لقد شرحت لك كل ما عندي».

– «أنا أعلم يا مارسيللوس طبيعتك الطاهرة والمُخلصة وأنك كنت دائماً صافي الذهن، وأحببت التعاليم السامية التي للفلسفة. فهلاَّ يمكنك أن تُشبع نفسك منها كما من قبل؟ لماذا تجذبك هكذا تعاليم ملعونة ليهودي مصلوب؟»

– «أنا لم أكن مكتفياً أبداً في أي وقت بالفلسفة التي تتكلم عنها. وأنت نفسك تعلم أنه ليس فيها شيء مؤكَّد يمكن أن ترتاح إليه النفس. ولكن المسيحية هي الحق الذي من الله، أرسله الله لنا بنفسه وكرَّسه لنا بموته».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «لقد شرحت لي كل الإيمان المسيحي وإن حماستك تجعله يبدو جذّاباً وأنا أعترف بذلك. وإذا كان كل أتباعه مثلك يا عزيزي مارسيللوس فإني أعتقد أن هذا الإيمان سوف يُبارك العالم كله. ولكني لم أحضر هنا لأتناقش معك في الدين. لقد جئت لأُكلِّمك عن نفسك أنك في خطر يا صديقي. مركزك، شرفك، وظيفتك، حياتك نفسها في خطر. وأرجوك أن تفكر فيما فعلت. لقد أُسنِدَت إليك مهمة خطيرة وكان عليك إتمامها. وكان مِنْ المتوقع أن تعود ومعك معلومات هامة، ولكنك بدلاً من ذلك تحضر وتُخبر القائد أنك انضممت إلى العدو وأنك صرتَ واحداً منهم بالقلب وأنك ترفض حَمْل السلاح ضدَّهم. وإذا كان الجندي حرًّا في اختيار من يُقاتله فماذا يكون مصير النظام والانضباط؟ إن الجندي يجب أن يطيع الأوامر فهل أنا على صواب؟»

– «إنك على صواب يا لوكيوللوس».

– «إن السؤال الذي تواجهه يا مارسيللوس ليس هو في أن تختار بين الفلسفة والمسيحية ولكن هو إما أن تكون مسيحياً أو جندياً، لأنك كما ترى في هذه الأيام أنه من المستحيل أن تكون جندياً ومسيحياً في نفس الوقت، فإنك يجب أن تتخلى عن إحدى الصفتين. وليس هذا فقط ولكنك إذا أصررت على أن تكون مسيحياً فإنك لوقتك تشارك المسيحيين في مصيرهم لأنه لا يمكن أن يكون لك أي استثناء خاص. ومن الناحية الأخرى إذا ظللت مستمراً كجندي فإنك يجب أن تقاتل ضد المسيحيين».

– «هذا هو السؤال بدون شك».

– «إن لك أصدقاء مُخلصين يرغبون بشدة في أن تنسى حماقتك

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

هذه يا مارسيللوس. أنا أعرف طبيعتك المتحمِّسة المندفعة، ولقد ترجيت القائد من أجلك. وهو أيضاً يحترمك من أجل خِصالك العسكرية الجيدة، وهو مستعد للصَفح عنك تحت شروط معينة».

- «ما هي الشروط؟»

- «إنها أكثر الشروط رحمة. أن تنسى الأيام الأربعة السابقة وأن ترفضها من ذاكرتك تماماً، واستمر في المهمة التي أُسلمتْ إليك وخذ جنودك وابدأ فوراً في أداء واجبك في القبض على هؤلاء المسيحيين».

فقام مارسيللوس من مقعده وقد ضم ذراعيه وقال لزميله:

- «يا لوكيوللوس. أنا أحبك كصديق وأنا ممنون جداً من أجل مشاعرك المخلصة ولا يمكن أن أنساها. ولكن في داخلي الآن ما هو غريب تماماً عنك وما هو أعظم من كل مجد الإمبراطورية. إن في داخلي الآن محبة الله. ومن أجل محبة الله أنا مستعد لترك كل شيء، كل الشرف والمجد، بل والحياة نفسها. إن قراري لا يمكن أن أرتد عنه. أنا مسيحي».

وجلس لوكيوللوس للحظة وهو مندهش وحزين ونظر إلى زميله، وكان يعرف طبيعته التي لا تعرف التردُّد، ورأى بحزن عميق كيف أن كل حواره معه لا يفيد. وبعد مدة طويلة أخذ يتكلَّم ثانية واستخدم كل حكمة يمكن أن يستخدمها في حواره معه وذكر له كل ما يمكن أن يحرك نفسه وكلَّمه عن المصير الفظيع الذي ينتظره والانتقام القاسي الذي سيوجَّه إليه.

ولكن كل كلامه كان بلا فائدة. ونهض أخيراً وهو في حزن عميق. وقال لمارسيللوس:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «إنك تجرِّب الأقدار وتندفع بجنون نحو مصير مُرعب. إن أمامك كل ما يمكن أن يجلب لك نصيباً حسناً ولكنك تتحول عنه لكي تُلقي بقرعتك بين المطاريد الملاعين. ولقد أديت واجبي كصديق لأحوِّلك عن حماقتك ولكني أرى أن كل ما أستطيع أن أفعله معك لا يأتي بأية فائدة.

ولقد أحضرت إليك حُكم القائد. إنك مفصول من وظيفتك، وإنك مقبوض عليك لأنك مسيحي. وغداً سوف يقبضون عليك وتُسلَّم للعقاب. ولكن أمامك على أي حال عدة ساعات. وأنا أكتفي بحزن عميق على أن أساعدك على الهرب. فاهرب الآن حالاً. أسرع لأنه لا يوجد وقت تضيِّعه ولا يوجد إلاَّ مكان واحد في العالم يمكنك أن تأمن فيه من انتقام الإمبراطور».

واستمع مارسيللوس لصديقه صامتاً. وأخذ ببطء يخلع أسلحته الرائعة ويضعها عنه. وفكَّ بحزن دِرْعه البهي الذي كان يفخر بلبسه ووقف بردائه البسيط أمام صديقه. ثم قال:

– «لوكيوللوس. أنا لا يمكن أن أنسى صداقتك المخلصة. وكنت أود أن نهرب معاً. حتى ترتفع صلواتك مع صلواتي إلى مَنْ أخدمه. ولكن يكفي هذا. لأني ذاهب. إلى اللقاء يا صديقي».

– «إلى اللقاء يا مارسيللوس. نحن لن نلتقي ثانية في هذه الحياة ولكنك إذا كنت في حاجة أو صعوبة فإنك تعرف على مَنْ تتكل».

وتعانق الشابان. ثم غادر مارسيللوس المكان بسرعة.

غادر مارسيللوس المعسكر وسار حتى وصل إلى الساحة الكبرى، وكان كل ما حوله عبارة عن هياكل رخامية وأعمدة ونُصب تذكارية.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وحيث كان قوس تيطس يعبر على طريق فيا ساكرا *Via Sacra*. كنت ترى هناك القصر الإمبراطوري بحجمه الهائل في العلو، وكان هذا القصر عظيماً في بنائه ومزيَّناً بالرخام الفاخر ويلمع بالديكورات الذهبية، وعلى جانب منه كانت تقف حوائط الكوليزيوم خلف قبة معبد السلام، وعلى الجانب الآخر كان تل الكابيتول يرتفع بقمته التاريخية وكان يتوِّجه مجموعة من المعابد التابعة للدولة، والتي كانت تقف متاخمة للسماء.

واتجه بخطواته إلى هناك. وسار صاعداً المنحدر إلى قمة التل ومن القمة هناك وقف وأخذ يتطلّع إلى المنظر. كان المكان الذي يقف فيه عبارة عن مربع كبير مبلّط بالرخام ومُحاط بالمعابد والهياكل. وكان في جانب معسكر مارتيوس ويحدُّه نهر التيبر حيث تجري مياه فيضانه الصفراء بعيداً لتصب في البحر المتوسط. وفي كل اتجاه آخر كانت المدينة تمتد بحدودها وكانت تزدحم جداً عند الأسوار ثم تتخطاها وتمتد بعيداً إلى أعماق الريف نفسه وفي كل اتجاه. وكانت المعابد والأعمدة والأضرحة ترتفع عالياً.

وكانت الشوارع ممتلئة بتماثيل وأشكال منحوتة. والنافورات تدفع مياهها عالياً في الهواء والعربات تسير في الشوارع وكتائب من العسكر تسير هنا وهناك في نظام عسكري بديع وكان مدُّ الحياة يندفع من كل ناحية من المدينة الإمبراطورية. وكان السهل يمتد بعيداً ويُرى به عدد لا يحصى من القرى والمنازل والقصور الزاخرة بالترف، وكأنه مستقرٌّ للسلام والغنى.

وفي جانب آخر كان يرتفع الخط الأزرق لجبال الأبينين Apennines وقد غطت قمته الثلوج؛ وفي الناحية الأخرى أمواج البحر المتوسط الداكنة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تغسل الشاطيء البعيد.

وفجأة انتبه مارسيللوس على صراخ عال. فاستدار ورأى رجلاً عجوزاً في ثياب رثّة ووجهه عليه أثر الجوع الشديد، وكان يرتسم عليه تعبير مخيف وكان يصرخ بعدد من التحذيرات المرعبة.

وكانت نظراته الوحشية وطريقته المخيفة تُظهره كأنه مجنونٌ:

[سقطت سقطت بابل العظيمة
وصارت مسكناً للشياطين
ومحرساً لكل روح نجس
ومحرساً لكل طائر نجس وممقوت ...
لأن الله تذكّر آثامها
جازوها كما هي جازتكم
وضاعفوا لها ضعفاً نظير أعمالها
بقدر ما مجّدت نفسها وتنعّمت
من أجل ذلك في يوم واحد ستأتي ضرباتها
موت وحزن وجوع
وتحترق بالنار
لأن الرب الإله الذي يدينها قوي
وسيبكي عليها ملوك الأرض
حينما ينظرون دخان حريقها
وهم واقفون من بعيد لأجل خوف عذابها
قائلين الويل الويل، المدينة العظيمة، المدينة القوية
لأنه في ساعة واحدة أتت دينونتكِ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ويقف تجّار الأرض بعيداً لأجل خوف عذابها
يبكون وينوحون
ويقولون الويل الويل
هذه المدينة العظيمة
المتسربلة بِبَزٍ وأُرجوان وقرمز
والمتحلّية بذهب وحجر كريم ولؤلؤ.
لأنه في ساعة واحدة خرب غنى مثل هذا
وكل ربان وكل الجماعة في السفن
والملاحون وكل عمّال البحر وقفوا من بعيد وصرخوا
أية مدينة مثل هذه المدينة العظيمة
وألقوا تراباً على رؤوسهم وصرخوا
باكين وصارخين قائلين:
الويل الويل المدينة العظيمة
التي فيها استغنى جميع الذين
لهم سفن في البحر من نفائسها
لأنها في ساعة واحدة خربت
افرحي لها أيتها السماء
والرسل والقديسون والأنبياء
لأن الرب قد دانها دينونتكم.] (انظر رؤ ١٨)

وتجمع حوله عدد كبير من الناس في دهشة. ولكنه بصعوبة توقف عندما حضر عدد من الجنود وأخذوه بعيداً. وفكر مارسيللوس في نفسه قائلاً: "إن هذا بدون شك أحد المسيحيين الذين ذهب التعذيبُ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بعقلهم". وبينما كانوا يجرُّون الرجل بعيداً كان ما زال يصرخ بتهديداته الرهيبة. وكان يتبعه جمهور كبير من الناس يصرخون عليه ويسخرون منه، وأخيراً اختفت الضجة بعيداً.

وقال مارسيللوس لنفسه: "لا يوجد وقت أضيِّعه. يجب أن أذهب سريعاً".

واستدار مبتعداً.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثامن

الحياة في السراديب

[يا للظلام، الظلام، الظلام في بهاء شمس الظهيرة. ظلام نهائي، خسوف تام بدون رجاء في النهار!]

وعند رجوعه إلى السراديب، استقبلوه بدموع الفرح واستمعوا بشوق عظيم إلى ما قاله لهم عن محادثاته مع رؤسائه. وبينما كانوا يُظهرون تعاطفهم الشديد مع آلامه، فإنهم كانوا فرحين أنه وُجِدَ مستحقاً أن يتألم مع المسيح.

ووسط هذه المناظر الجديدة، كان يتعلَّم المزيد عن الحق في كل يوم، ويرى كم يتحمل أتباع الحق! وانفتحت أمامه الحياة في السراديب بكل ما فيها من عجائب.

وكان العدد الضخم من الناس الذين يسكنون في السراديب يحصلون على احتياجاتهم اليومية عن طريق اتصالاتهم بالمدينة من فوق، وكان هذا يحدث في المساء. وكان أكثر الرجال ثقة وجُرْأة يتطوعون لأداء هذه المهمة الخطيرة. وأحياناً النساء، وأحياناً الأولاد، الذين كانوا أكثر الناجحين في هذا الأمر. وكان الغلام بولليو أكثر الناجحين في هذه المهمة. لم يكن بالأمر الصعب أن تعبر وسط هذا العدد الهائل من سكان روما بدون أن يلحظك أحد، ولذلك كانت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الإمدادات التي تصل إلى سكان السراديب كافية، ولكن أحياناً كانت الرحلة تختتم بنهاية قاتلة فلا يعود المغامرون الشجعان من مهمتهم البتة.

وبالنسبة للماء، كان هناك مصدر غني بالماء في الممرات في الطبقات السفلية جداً، فقد كانت توجد آبار وعيون تمدهم بكل حاجتهم من المياه.

وفي الليل كانت تُرسل أكثر البعثات تعرُّضاً للخطر، وذلك بحثاً عن الموتى الذين مزقتهم الوحوش المفترسة أو أُحرقوا أحياء. هذه البقايا المحبوبة كانوا يحصلون عليها بمخاطرة شديدة، وكانت تصل إليهم وسط آلاف الأخطار. حينئذ كان أصدقاء المفقودين يُقيمون الجنازات ويحتفلون بعيد دفنهم، وبعد ذلك يضعون رفاتهم في الفتحات الضيقة التي في الحوائط ويُغلقون المكان بلوح رخام منقوش عليه اسم المدفون.

وكان المسيحيون، وهم يستوحون التعاليم المقدسة عن القيامة، يتطلعون برجاء حار إلى اليوم الذي يلبس فيه الفساد عدم الفساد والمائت عدم الموت. وكان المسيحيون لا يحبون أن يحرقوا جثث الموتى لأنهم كانوا لا يتصورون أن هذا الجسد الذي ينتظره أبدية عظيمة في السماء يتحول إلى رماد. بل كانوا يعتبرون أن اللهب[1] الذي يُوقد في الجنازات لا يُعتبر كرامة لهيكل الله الذي سينال تكريماً أعظم في السماء. ولذلك كانوا يُحضرون أجساد الموتى بعيداً عن أعين الناس

---

(١) يبدو أنها كانت عادة عند الرومان أن يحرقوا جثث الموتى، ولذلك يوقدون اللهب في جنازاتهم لذلك الغرض.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

حيث لا يستطيع أحد أن يعكِّر سلامهم في رقادهم الأخير في انتظار صوت "البوق الأخير" الذي سيجمع الكل، هذا البوق الذي كانت الكنيسة الأُولى تنتظره بشوق بالغ وانتظار وتوقع يومي. وفي المدينة فوق، كانت المسيحية تزداد في الأجيال المتعاقبة. وعلى هذا كان عدد الموتى الذين يصلون للسراديب يزداد، ولذلك أصبحت السراديب عبارة عن مدينة ضخمة للموتى يجتمع فيها عدد لا حصر له من الموتى الذين يرقدون في صمت في حلقات لانهائية، صفوفاً فوق صفوف، ينتظرون نداء الرب للإجتماع به، نداء الرب للذين اغتسلوا بدمه "في لحظة في طرفة عين" ليقابلوه على السحاب. وفي أماكن كثيرة هُدِمَت الأقبية ورُفِعَت الأسقُف لكي تكوَّن حجرات، وكان معظمها صغير الحجم. ولكنها كانت تشكِّل مناطق يستطيع المطرودون أن يجتمعوا فيها بأعداد كبيرة نسبياً ويتنسَّموا الحرية أكثر. وهناك كانوا يمضون معظم وقتهم. وهناك كانوا يُقيمون اجتماعاتهم الأخوية.

وأمَّا طبيعة الزمن الذي كانوا يعيشون فيه فهي توضِّح حالتهم: لقد ولَّت أيام الجمهورية القديمة ببساطتها، وضاعت الحرية إلى غير رجعة، وغطَّى الفساد على الإمبراطورية، وبسط أثره على كل شيء. والمؤامرات والثورات والخيانات والاضرابات هدَّدت الإمبراطورية الواحدة تلو الأخرى. وكان الناس الذين يسقطون يمضون في صمت. كانوا ينظرون لآلام الناس التي يتحملونها بشجاعة ولموتهم النبيل بلا اكتراث. والقلوب المُخلِصة والنفوس الملتهبة حباً لم يَعُدْ لها مكان، بل أصبح المكان مرتعاً لأحطِّ الشهوات والمشاعر.

إلى مدينةٍ مثل هذه، جاءَ حقُّ المسيح بجُرأة. وضد أعداء مثل هؤلاء

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كـان على هـذا الحق أن يُقاتل ويواصـل طريقـه ضـد هـذه العقبـات لكـي يواصل تقدمـه الـذي وإن بـدا بطيئـاً، إلاَّ أنـه تقـدُّم واثـق. وكـان مَـنْ ينضوي تحـت لـواء هـذه المدينـة لا يحيـا حيـاة سـهلة. ولم يكـن نـداء المسيحية نـداءً غير معروفـة عواقبـه، بـل كـانت المواجهـة رهيبـة، تشـمل الاسم والشـهرة والثروة والأصدقـاء بـل والحياة نفسـها، كـل مـا هـو عزيـز على قلـب الإنسـان. ويمـر الوقـت. وإن كـان أتبـاع الحـق يـزدادون في العدد فـإن الخطيـة أيضـاً كـانت تـزداد قوتهـا وضراوتهـا. إن النـاس يغرقـون في الفسـاد والدولـة تنحدر كـل يـوم إلى الخراب.

ثم فوق هـذا تقـوم هـذه الاضطهـادات الفظيعـة لكـي تسـتأصل كـل أثـر للمسيحية مـن علـى وجـه الأرض. محنـة قاسـية تنتظـر المسـيحي إذا خـالـف الأوامـر الإمبراطوريـة. أمَّـا أتبـاع الإمبراطوريـة فكـان مـن العسـير عليهـم اتِّبـاع الحـق المسيحي. وإذا صمَّـم أحدهـم علـى اتبـاع ذلـك الحـق يكـون في ذلك نهايتـه. فاتِّبـاع المسـيحية معنـاه إمَّـا المـوت في الحـال، أو الطـرد مـن المدينة، الطرد من أفـراح المنـزل ومـن ضـوء النهـار.

لقـد تقسَّـت قلُـوب الرومـانيين واظلمَّـت عيونهـم. ولم تَعُـدْ بـراءة الطفولـة ولا طهـارة النسـاء، ولا نُبـل الرجـال ولا الشـعر الأبيـض الـذي للشيوخ ولا الإيمان الثابت ولا الحب المنتصر على المـوت، يؤثـر عليهـم أو يدفعهـم للشفقة. لم يكونـوا يـرون سحابة الخراب السـوداء الـتي تحـوم حـول الإمبراطوريـة الـتي أصابتهـا اللعنـة، ولم يدركـوا أن هـؤلاء الذيـن يضطهدونهـم هـم الوحيـدون القـادرون علـى إنقـاذهم مـن غضبهـا.

وفي وسـط تملُّـك الرعـب هـذا، انفتحـت السـراديب أمـام المسـيحيين كمدينة ملجـأ ومكـان يهربـون إليـه. فهنـا ترقـد عظـام آبـائهم الذيـن قـاتلوا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

من أجل الحق جيلاً بعد جيل، وترقد أجسادهم الممزقة التي تحمل سمات الرب يسوع وعلامات الشهادة، منتظرة صوت بوق القيامة من الأموات. وهنا أحضروا أجساد أقاربهم الذين كانوا يفارقونهم واحداً بعد الآخر إلى الأعالي. هنا حمل الابن جسد أُمه العجوز وحمل الوالدان أجساد أبنائهم إلى المقابر. هنا حملوا البقايا المختلطة لجثث هؤلاء الذين مزقتهم الوحوش المفترسة في ساحة المصارعة، وهنا تجد الجثث المسوَّدة والمتفحمة لهؤلاء الذين استشهدوا حرقاً بالنار، وتجد الجثث التي انطحنت من قسوة ما عانت من آلام هؤلاء الذين يُعتبرون أشدَّ الذين ماتوا عذاباً لأنهم ذاقوا الآلام المرَّة لموت الصليب.

وكان لكل ساكن هنا، إمَّا صديق أو قريب يرقد ميتاً هنا. الأرض نفسها تقدَّست والهواء نفسه تقدَّس. ولم يكن غريباً أن يبحثوا عن الأمان في مثل هذا المكان. وأكثر من ذلك فإنهم كانوا يجدون في هذه الأماكن السفلية ملجأهم الوحيد من الاضطهاد. لم يكن في إمكانهم أن يهربوا إلى بلاد غريبة أو يهربوا إلى ما وراء البحار لأنه لم يكن لديهم أية مدينة للفرار إليها، ولا أرض وراء البحر يوجد فيها أي أمل لهم. لقد كانت القبضة الحديدية للإمبراطورية الرومانية مُمسِكة بكل العالم المتمدِّن. وكان نظامها البوليسي المُحْكَم يمتد إلى كل الأرض، ولا يستطيع أحد أن يهرب من غضبها. وكانت قوة الإمبراطورية لا تُقهر، حتى إنه من أول النُبلاء إلى أقل العبيد شأناً كانوا خاضعين لها. وكان أي إمبراطور معزول لا يستطيع أن يفلت من غضبها ولا يستطيع حتى مجرد الهروب منها. وعندما سقط نيرون لم يكن أمامه سوى أن يذهب ويقتل نفسه في قصره.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولكـن هنـا في السـراديب في وسـط هـذه المتاهـة اللانهائيـة، حتـى قـوة روما نفسـها، وكـل مبعوثيهـا الحيارى وقفـوا عنـد مدخـل السـراديب لا يدرون مـاذا يفعلـون.

هنـا، إذاً، سـكن المسـيحيون المضطهَـدون وعاشـوا بـأعدادهم الكبـيرة في هـذه الممرات، يجتمعون في النهـار لتبـادل كلمـات التحيـة والتعزيـة أو ليتنـاقلوا أخبـار مـوت شـهداء جُـدد، وفي الليـل يرسـلون أجـرأ مَـنْ فيهـم برجـاء يـائس لمعرفـة أخبـار العـالم العلـوي أو ليحضـروا الجثـث المخضَّبـة بـالدم لشـهداء جُـدد. وخـلال الاضطهـادات المختلفـة سـكنوا هنـا. وبـالرغم مـن مـوت الملايين مـن المسيحيين في الإمبراطوريـة، فـإن قـوة المسـيحية في رومـا لم تهـتز إلاَّ قليـلاً. في هـذه السـراديب كـانوا يضمنـون السـلامة وحفـظ الحيـاة ولكـن كـان هـذا تحـت شـروط رهيبـة. لأنـه مـا قيمـة الحيـاة بـدون النـور؟ ومـا هـي قيمـة نجـاة الجسـد في هـذا الظـلام الـذي يُصيـب النفـس بـالمرض والاكتئـاب؟ إن طبيعـة الإنسـان وتكوينـه الرقيـق تنضغـط بشـدة تحـت مثـل هـذه الحيـاة، وسـرعان مـا يحـس الإنسـان مباشـرة بأهميـة الضـوء لـه. وقليـلاً قليـلاً تفقـد وظـائف الجسـم الحيويـة تأثيرهـا الطبيعـي وقدرتهـا، ويؤثـر ضعـف الجسـد هـذا علـى الذهـن. ويتعـرض الذهـن للظـلام والضغـط النفسـي والشـك واليـأس. وإنـه لمـن عظيـم الشـرف للإنسـان أن يظـل ثابتـاً وأمينـاً تحـت هـذه الظـروف. بـل إن هـذا يُعتـبر أكـثر مـن مـوت بطـولي في الحلبـة، أو الإقـدام بـلا تراجـع علـى الإعـدام حرقـاً. هنـا حيـث تحيـط بالسـاكنين أكـثر درجـات الظلمـة، فـإنهم يواجهـون أعظـم تجربـة لهـم. إن الثبـات في الاضطهـاد نفسـه مدعـاة للإعجـاب، ولكـن الحيـاة في جـو ممـزوج بهـذه الأمـور المرعبـة معـاداة للإضطهاد فإنه أمـر أكـثر سمـواً.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كان تيار الهواء البارد الذي يهب خلال تلك المتاهات يجمِّد أطرافهم، ولكنه لا يحمل هواءً نقياً من الخارج. وكانت الأسقف والحوائط مغطاة براسب قذر من البخار المعلَّق في الداخل دائماً، والهواء كان مشبَّعاً بنواتج التنفس الفاسدة والأبخرة العفنة السامة، وربما كان الدخان الكثيف للمشاعل يخفف من هذه الغازات الخانقة ولكنه يضغط على أعصاب الساكنين بتأثيره المُسبب للعمى والسعال. وفي وسط كل هذه الأهوال تقف روح الشهيد شامخة غير منهزمة، والروح النشطة التي احتملت كل هذا ترتفع إلى درجات عالية لم تصلها في أعظم أيام الإمبراطورية. وصمود ريجولوس وتقوى كوريتوس وثبات بروتوس[٢] نجدها هنا وقد فاقها ليس الرجال الأقوياء فقط، ولكن العذارى الرقيقات والأطفال الضعاف. وعاش هؤلاء فضلاء، أطهار القلب، شجعاناً، نبلاء، وكأن الموت قد فَقَدَ رعبته عليهم، ولم يأبهوا لهذه الحياة في وسط الموت التي أُجبروا عليها في أماكن الموتى هذه الموحشة. لقد كانوا يعرفون ما ينتظرهم في السماء، ولذلك قَبِلوا كل هذا. وكانوا ينزلون إلى هنا برغبتهم ويحملون معهم أثمن الأشياء لروح الإنسان. لقد احتملوا كل هذا من أجل الحب العظيم الذي أحبهم به الرب.

وكان المجهود الدائم الذي يبذلونه ليقللوا من ظلمة مساكنهم السفلية واضحاً في كل مكان، فكانت الحوائط في بعض الأماكن مغطاة بطلاء جيري أبيض وتزينها صور في أماكن متفرقة، صور ليست لآلهة ميتة في عبادة وثنية، ولكن لهؤلاء الأبطال العظام، الذين

---

(٢) من أعاظم الرجال في روما.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

شفاههن»:

«إلى الذي أحبَّنا بدمه طهَّرنا»

وبينما كان مارسيللوس مستغرقاً في كلامه، كان تأثير ذلك عجيباً على المحيطين به. فلقد تلألأت عيون السامعين بالشوق والفرح عندما ذُكر اسم ماسير Macer المصارع وتبادلوا فيما بينهم نظرات ذات معنى. وعندما أتى ذكر الرجل الشيخ، أحنى هونوريوس رأسه. وعندما أتى ذِكْر الفتيات الصغيرات وترديده كلمات الترتيلة حوَّل السامعون وجوههم وبَكَوْا.

واستمر مارسيللوس في كلامه:

- «للمرة الأُولى في حياتي أرى الموت مهزوماً. أنا نفسي يمكنني أن أواجه الموت بدون أي خوف، وهكذا أيضاً يستطيع أي جندي أن يواجه الموت بدون خوف في ساحة القتال، لأن هذه هي طبيعة عملنا. ولكن العجيب فيما رأيت أن هؤلاء الذين يواجهون الموت لم يكونوا جنوداً بل أطفالاً. ولكن كان لهم نفس هذا الإحساس الشجاع العجيب في قلوبهم.

ومنذ ذلك الحين لم أستطع أن أفكر في أي شيء آخر سوى مَنْ هو هذا الذي أحبَّكم؟ مَنْ هو ذاك الذي غسلكم من خطاياكم؟ مَنْ هو الذي بعث هذه الشجاعة العظيمة وهذا الرجاء في داخلكم؟ ومَنْ الذي يعضِّدكم هنا؟ ومَنْ هو هذا الذي تصلُّون إليه الآن؟

حقيقة أنني مكلَّف بمأمورية إحضار جنود للقبض عليكم وقتلكم ولكنني أريد أن أعرف عنكم الكثير، وأنا أُقسم بالإله العلي أن زيارتي هذه لن تسبب لكم أي ضرر، والآن أخبرني عن سر المسيحيين».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فقال له هونوريوس:

- «إن كلامك صادق ومُخلص. والآن أعلم أنك لست جاسوساً ولا عدواً وإنما أنت روح مسكينة تبحث عن الحق. وقد أرسلك روح الله إلى هنا حتى تعرف ما كنت تبحث عنه من زمن طويل، فافرح وتهلل لأن كل مَنْ يُقبل إلى المسيح لا يمكن أن يُخرجه خارجاً.

أنت ترى أمامك رجالاً ونساءً وأطفالاً تركوا أصدقاءهم ومنازلهم وكرامتهم وثروتهم ليعيشوا هنا معوزين وفي خوف وحزن، ولكنهم يحسبون كل ذلك كلا شيء من أجل المسيح، بل إنهم يحسبون حياتهم نفسها كلا شيء، لقد تركوا كل شيء من أجل ذلك الذي أحبهم. وإنك على حق يا مارسيللوس عندما تظن أن هناك قوة عظيمة تستطيع أن تعمل هذا كله، وليس هذا تطرفاً في الفكر ولا خداعاً أو أوهاماً أو تصورات، ولكن هذه القوة هي معرفة الحق ومحبة الله الحي.

إن ما كنت تبحث عنه طوال عمرك هو هو أعز ما نمتلك. وهذا الكنز موجود في قلوبنا، وبالنسبة إلينا فإن هذا الكنز أغلى من كل ما يستطيع العالم أن يقدمه لنا. وهذا الكنز يمنحنا السعادة في الحياة، حتى في هذه الأماكن المظلمة، وعند الموت فإن هذا السر يجعلنا منتصرين.

إنك ترغب في أن تصل إلى معرفة الكائن الأعلى. إن ديانتنا المسيحية هي استعلان هذا الكائن الأعلى، لأنه أعلن نفسه من خلال ديانتنا المسيحية. وهو غير متناهٍ في عظمته وقوته، وهو أيضاً غير متناهٍ في محبته ورحمته، وإيماننا هذا يجذبنا قريباً إليه جداً حتى إنه يصبح أعظم صديق ومرشد ومُعَزٍّ لنا، بل ورجاؤنا، إنه يصبح كل شيء لنا، وهو خالقنا ومخلّصنا، وهو فادينا الآن وحتى المنتهى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

«بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا براً، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، أطفأوا قوة النار، ونجوا من حد السيف، وتقووا من ضعف وهزموا جيوش غرباء» (عب ١١: ٣٣و٣٤). وإن كانوا في ساعات ضيقتهم المرَّة يبحثون عن مناظر أو أفكار تفرِّج عن روحهم وتلهِبُهُم بقوة جديدة للمستقبل، فإنهم لم يجدوا مناظر أقوى من هذه ينظرون إليها فتشجِّعهم وتعزِّيهم.

وكانت هذه هي ديكورات الكنائس. أثاثهم الوحيد هو عبارة عن مائدة خشبية بسيطة يضعون عليها الخبز والخمر تقدمة عشاء الرب، اللذين يصيران جسد ودم الرب المصلوب.

كانت العقيدة الأساسية للمسيحية الأُولى تحمل سمات البساطة: خطية الإنسان، ورحمة الآب، وغفران الابن وحلول الروح القدس، والخلاص بالإيمان بالمخلِّص، وقيمة دمه الثمين، وقيامته بالجسد والرجاء المبارك برجوعه. كل هذه الحقائق الأساسية كانوا يجلُّونها بغيرة وطاقة لا يمكن لأية لغة أن تصفها بأمانة.

لقد كانوا يمتلكون هذا الرجاء السماوي. مرسىً للنفس، قوياً جداً وثابتاً حتى إنَّ غضبَ الإمبراطورية فشل في أن يفصلهم عن صخر الدهور حيث كانوا يحتمون.

لقد كانوا يمتلكون هذا الإيمان العظيم الذي كان يحفظهم في أعظم التجارب. الإنسان الممجَّد عن يمين الله كان هو موضوع إيمانهم ورجائهم. الإيمان به كان هو كل شيء لهم. كان هو نسمة الحياة لهم؛ وكان الرب صادقاً معهم حتى إنه كان يحفظهم في ساعة التضحية

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

القاسية. كان موجوداً دائماً حتى عندما كان يُظن أن كل أتباع المسيح قد اندثروا من على وجه الأرض، فإنهم كانوا ينظرون إليه بثقة وينتظرونه.

وكان عندهم المحبة التي عرَّفها المسيح وهو على الأرض بأنها هي كل الناموس والأنبياء. ولم يكن التناحر المذهبي ولا مرارة الطائفية معروفة لديهم. فقد كان أمامهم عدو واحد مشترك عليهم أن يقاتلوه؛ فكيف يمكنهم أن يتناحروا مع بعضهم البعض؟ هنا يرتفع حب الإنسان الذي لا يعرف تفرقة لجنس أو طبقة. ولكن يحتضن الكل في حضنه المتسع حتى يمكن للإنسان أن يضع حياته من أجل أخيه. هنا محبة الله التي انسكبت في القلب بالروح القدس لا تقف عند حد ولا إلى التضحية بالنفس. والاضطهاد الذي ثار حولهم قوّى في داخلهم كل هذه الغيرة والإيمان والحب الذي لمع بشدة وسط ظلمة هذا الدهر. وجعل عددهم يقتصر على الصادقين والمُخلصين فقط.

لقد كان الاضطهاد هو المصل المضاد للرياء. أعطى للشجعان روح البطولة، وألهم ضعاف القلوب بشجاعة العبادة. **لقد عاشوا وقت أن كان مجرد أن يكون الإنسان مسيحياً فهذا يعني المخاطرة بالحياة نفسها.** ولكنهم لم يرتدوا، ولكن بجسارة أعلنوا إيمانهم وقَبِلوا النتائج المترتبة على ذلك. ووضعوا فاصلاً عريضاً وعميقاً بينهم وبين العالم ووقفوا برجولة في موقعهم. وكان مجرد النطق بكلمات بسيطة أو تقديم أعمالٍ صغيرة كافياً لأن ينقذهم من الموت، ولكن لسانهم رفض نطق صيغة الإيمان الوثني ويدهم رفضت أن تقدِّم البخور. لقد كانت استجابتهم للحقائق الإيمانية المسيحية أكثر من مجرد استجابة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عقلية. لم يكن المسيح بالنسبة لهم مجرد فكرة ولكن وجود حي حقيقي شخصي. كانت حياة المسيح على الأرض بالنسبة إليهم حقاً حياً، وقبلوه كمثال حي لكل إنسان. فوداعته واتضاعه وصبره ورِقّته، كل هذه كانوا يؤمنون بأنها مقدَّمة لهم لكي يقتدوا بها.

لم يفصلوا بين المسيحية المثالية والواقع الحي. وكانوا يؤمنون أن إيمان الإنسان يتكون من حياته بقدر ما هو من أفكاره ولم يتعلموا أن يفصلوا بين المسيحية النظرية والمسيحية العملية.

كان موت المسيح بالنسبة لهم حدثاً عظيماً، تصغر بجانبه كل الأشياء الأخرى.

فأنْ يكون المسيح مات حقاً، ومن أجل بني البشر، هذه الحقائق لم يُدركها أحد مثلما آمنوا بها. وكونه قام وتمجَّد وجلس عن يمين الآب وأُعطيت له كل قوة في السماء والأرض، فكان كل ذلك بالنسبة إليهم حقيقة إلهية.

ولم يكن ممكناً أن يفتكروا في غير الواحد الوحيد الذي تعلَّق على الصليب لأجل إخوته أو مات في الساحة لأجل الله. لقد حملوا الصليب وتبعوا المسيح حاملين عاره ولم يكن هذا الصليب وهذا العار بالرمز فقط ولكن بالفعل والحق. تشهد على ذلك هذه المتاهات المظلمة التي لا تصلح سوى أن تكون مساكن للموتى، والتي انفتحت لسنوات لكي تحمي الأحياء. وتشهد على ذلك هذه الأسماء التي للشهداء، وهذه الكلمات التي تعُبِّر عن الانتصار. الجدران تحمل للأجيال كلمات الألم والحزن والرثاء والمشاعر التي كُتِبَت عليها من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أجيال. الجدران تحمل قصتهم الحزينة إلى أجيال المستقبل وتنقل إلى تصورنا أشكال ومشاعر وأفعال هؤلاء المسجونين في هذا المكان. وكما تنطبع صور الحياة على شريط الكاميرا، هكذا انطبع الصوت القوي من روح الشهيد المتألِّمة على الجدران.

أتباع الحق، شهداء الحق، المتواضعون، الفقراء المحتقرون المنسيون، ذهب صراخهم أدراج الرياح في طلب الرحمة من الناس. ولكن بينما أجاب بنو جنسهم على صرخاتهم اليائسة بمزيد من التعذيب، أثبتت هذه الجدران الصخرية مزيداً من الرحمة! وكأنها قد سمعت أنَّاتهم فضمَّتهم إلى أحضانها! وهكذا عاشت هنا صرخات آلامهم، محفوظة ومنحوتة على الصخر إلى الأبد!

لقد كان تحوُّل مارسيللوس إلى المسيحية مفاجئاً. ولكن هذه التحولات السريعة من الخطأ إلى الحق لم تكن قليلة الشأن. لقد جرَّب أعلى مستويات الاعتقادات الوثنية والفلسفة الأممية ولكنه وجدها قاصرة. وسرعان ما تجلت المسيحية أمامه فوجد فيها كل مشتهاه. وجد أنها تملك بالضبط ما يحتاج هو إليه لإشباع نفسه وملء قلبه الفارغ بالسلام. وإذا كان التحوُّل الذي جازه سريعاً، إلاَّ أنه كان شاملاً. فقد انفتحت عيناه ورأى شمس البر فلم يَعُدْ بقادر أن يُطفئها!

لقد كان عمل التجديد في داخله إلهياً وشاملاً، وقَبِلَ هو بفرح نصيبه في الآلام مع المُضطَهَدين.

كانت حالات التجديد مثل هذه تُميِّز الكرازة الأُولى بالإنجيل. وكان في العالم الوثني أرواح لا تُحصَى أحسَّت بنفس إحساس

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مارسيللوس، وعبرت على نفس الخبرة، ولم تكن تحتاج إلاّ إلى سماع صوت الحق فقط وبقوة الروح القدس لكي تنفتح أعينها وتنتقل إلى النور. هذا التأثير الإلهي على الذهن البشري، كان هو سبب سرعة انتشار المسيحية، كما نراه واضحاً.

وكان مارسيللوس يحيا ويتحرك ويتكلم مع إخوته الجُدَد. وسرعان ما سبر مارسيللوس أغوار رجائهم ومخاوفهم وأفراحهم. ودخل إيمانهم وصدقهم إلى قلبه. وكل التوقعات المجيدة التي تؤازرهم أصبحت هي مصدر عزاء لروحه. وكانت كلمة الحياة المباركة هي درسه وفرحته الدائمين، ووجدت تعاليمها فيه تلميذاً غيوراً مجتهداً.

وكانت اجتماعات الصلاة والتسبيح كثيرة في السراديب. لأنهم إذ انقطعوا من كل اهتمام عالمي فإنهم اتجهوا تماماً إلى إهتمام آخر أعلى. ولأنهم انقطعوا عن بذل الجهد لإعالة الجسد، فإنهم اجتهدوا في أن يكون شغلهم الأساسي هو الاهتمام بالروح. وحصلوا على ما يريدون. وفقدت الأرض بكل اهتماماتها وإغرائها وجاذبيتها كل تأثير عليهم. واقتربت إليهم السماء، وأفكارهم ولغتهم صارت من الملكوت. كانوا يحبون أن يتكلّموا عن الفرح الذي ينتظر هؤلاء الذين يدومون مُخلصين حتى الموت. وكانوا يحبون سيرة الإخوة الذين رحلوا والذين لم يكونوا يحسبونهم مفقودين بل سابقين.

وأعظم من هذا كله، فإنهم كانوا ينتظرون ذلك اليوم العظيم للُّقيا في النهاية عندما يقوم الأموات ويتغير الأحياء ويُحضر شعبه الذين اشتراهم وغسلهم بدمه، ويجمعهم حوله في السحاب، وحيث يقفون أمام كرسي المسيح الديان لينالوا مجازاة أمانتهم (١ تس ٤:١٣-١٨؛

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في ٣: ٢٠و٢١؛ ١ كـــو ٣).

وهكـذا كـان مارسيللوس يرى هـذه الممرات الموحشـة، أنها لا تغـرق في الصمـت وهجـوع المـوت ولكـن ملآنـة بـآلاف الأحيـاء.

حقيقـة أنهـم كـانوا ضُعفـاء وشـاحبين ومضغوطـين ولكنهـم وجـدوا نصيباً أفضـل في هـذه الممـرات المُظلمـة عمَّا كـان ينتظرهـم في ضـوء النهـار فـوق، وجعلـت الحيـاة أمـاكن المـوت أكـثر إنسـانية، ورنَّـت بـأصوات البشر الممراتُ الموحشـة. ونـور الحق والفضيلـة وقـد تبـدد مـن فـوق، أضاءَ مجدَّداً ببهـاء أروع، أطهـر في هـذه الظلمـات السـفلية.

وكـانت تحيات المحبـة والتعطُّـف والصداقـة والأُخـوَّة ترتفـع مـن بـين رفـات المنتقلـين.

هنـا تمتزج دمـوع الحـزن مـع دمـاء الشـهداء، ويـد المحبـة تُدثِّـر أعضـاءه الشـاحبة في الكفـن. هنـا في هـذه المتاهـات ترتفـع الأرواح الشـجاعة فـوق الأحـزان.

الرجـاء والإيمـان يبتسـمان بعـزة، ويشـيران إلى نـور «كوكـب الصبـح المنير»، وصـوت التسـبيح يرتفـع مـن شـفاه البـاكين.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل التاسع

الاضطهـــاد

[«لأنكـم تحتـاجون إلى الصـبر حتـى إذا صنعتم مشيئة الله تنالون الموعـد.» (عـب ١٠:٣٦)]

التهـب سعير الاضطهـاد جداً – بعـد الأسابيع القليلـة الـتي مضـت منـذ عـاش مارسيللوس في السراديب – حتى إن أعـداداً كبيرة مـن المسـيحيين التجـأت إلى السـراديب بصـورة لم يتجمَّع فيهـا مـن قبـل مثـل هـذا العـدد الضخم في هـذا المكـان.

وكـانت السلطات تهتـم بصفـة خاصـة بالمسـيحيين البـارزين، وكـان معظـم اللاجئين إلى السـراديب مـن هـؤلاء. لقـد كـان اضطهـاداً شـديداً جداً حتى إنـه شمـل الجميع. وهـذا الطوفـان الأعمـى الـذي لم يفـرِّق بـين أحـد لم يحـدث إلاَّ تحـت حكـم عـدد قليـل جـداً مـن الأبـاطرة. لأن الاضطهـاد لم يفـرِّق بـين أية طبقـة وأخرى، أو أي مركـز وآخـر، فكـانوا يدفعون إلى الموت أقـل الأتبـاع شـأناً مثلهـم مثل أعظـم المعلمين.

وحتـى ذلـك الوقـت كـان الاتصـال بالمدينـة سـهلاً لأن المسـيحيين المساكين الذيـن يعيشـون فـوق الأرض لم يهملـوا إخوتهـم الذيـن كـانوا يعيشـون أسـفل في السـراديب ولم ينسـوا احتياجـاتهم. وبهـذه الطريقـة كـان سـكان السـراديب يحصلـون علـى احتياجـاتهم مـن كـل صنـف.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولكن الآن فإن هؤلاء الذين كان اللاجئون في السراديب يعتمدون عليهم، هم أنفسهم التجأوا إلى السراديب من وجه الاضطهاد، وصاروا شركاءَ في تلقِّي المحبة بعد أن كانوا باذلين للمحبة والعطاء.

ولكن بالرغم من هذا لم يكن الموقف ميئوساً منه لأنه كان يوجد الكثيرون في روما يحبون المسيحيين ويساعدونهم بالرغم من أنهم هم أنفسهم لم يكونوا مسيحيين. لأنه يوجد دائماً في كل الحركات الكبرى أُناس معتدلون، وذلك إما عن اهتمام أو عن عدم اكتراث بالأمر، وهكذا يظلون غير قابلين للتأثر. وهؤلاء دائماً يرتبطون بالجانب القوي، وإذا ما لاح لهم الخطر فإنهم يتجنبونه دون المخاطرة بأية تنازلات. وكان هذا حال الجانب الأكبر من أهل روما، إذ كان لهم أصدقاء وأقارب بين المسيحيين وكانوا يحبونهم ويتعاطفون معهم، وكانوا مستعدين دائماً لمساعدتهم، ولكنهم كانوا يهتمون بسلامة أنفسهم أولاً ولا يستطيعون أن يشاركوا المسيحيين في نصيبهم وقسمتهم. وهؤلاء كانوا يحضرون إلى الهياكل الوثنية ويساعدون في العبادة للآلهة كما من قبل وكانوا أتباعاً بالاسم للديانة القديمة. وعلى هؤلاء اعتمد المسيحيون في تدبير احتياجات الحياة داخل السراديب.

ولكن أصبحت البعثات إلى المدينة الآن أكثر خطراً، والأكثر شجاعة هم الذين كانوا يُخاطرون بالخروج إلى المدينة. ولأن احتقارهم للخطر والموت كان يلهمهم الشجاعة، فلم يكن هناك أي نقص في أعداد الذين يقومون بهذه المهمة الخطيرة.

وقدَّم مارسيللوس نفسه لهذه المهمة وكان سعيداً بأنه أصبح قادراً على مساعدة إخوته بطريقة ما. وكانت جراءته ويقظته التي رفعته عالياً في

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مصاف الجنود هي التي جعلته ناجحاً في هذه المهمة الجديدة الخطيرة.

وكان هناك أعدادٌ تموت كل يوم، وكان المسيحيون يبحثون عن أجسادهم ويحملونها ويدفنونها، ولم يكن هذا صعباً في إتمامه إذ أنه كان يريح السلطات من مهمة حمل هذه الجثث وحرقها.

وجاءت الأخبار يوماً ما إلى الجماعة المتواجدة تحت طريق أبيَّا أن اثنين منهم قد قُبض عليهم وأُسلما للموت. وذهب مارسيللوس ومعه أحد المسيحيين الآخرين لكي يُحضروا أجسادهم، وذهب معهم الفتى بولليو لكي يكون نافعاً في وقت الحاجة. ودخلوا بوابة المدينة عند الغَسَق وازداد الظلام بسرعة، ولكن حالاً سطع القمر وأنار المشهد.

وسار الجميع خلال الشوارع المظلمة، وأخيراً وصلوا إلى الكوليزيوم مكان استشهاد الكثير من رفاقهم. وأطلَّ عليهم منظره الهائل في الظلام، شامخاً مُقبضاً كئيباً كحال السلطة الإمبراطورية التي أنشأته. وكان هناك عدد كبير من البوابين والحراس والمصارعين في داخل البوابة الحديدية حيث كان مدخله المقبي مُضاءً بنور المشاعل.

وكان البوابون يعلمون غرضهم، فأمروهم بغلظة أن يتبعوهم. وظلوا يقودونهم حتى وصلوا إلى الحلبة حيث كان مسجَّى عدد من الجثث، آخر الجثث التي ماتت في هذا اليوم. وكانت هذه الجثث مختلطة بطريقة مخيفة. وبعضها كان لا يمكن تمييزه أبداً على أنه جثث آدمية. وبعد بحث طويل أمكنهم أن يجدوا الجثتين اللتين كانوا يبحثون عنهما، ووضعوهما في أجولة كبيرة كانوا قد أعدوها خصيصاً لذلك.

وتطلع مارسيللوس إلى المنظر الذي أمامه، فرأى الأسوار الضخمة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ترتفع حوله من كل ناحية وهي ممتدة بمدرجات عديدة إلى الخلف إلى السور الخارجي. وكان منظرها الأسود يبدو كما لو كان يغلق عليه في حاجز لا يستطيع أن يتجاوزه.

وأخذ يفكر: "يا ترى كم من الوقت سيمر قبل أن آخذ مكاني هنا وأضع حياتي من أجل مخلّصي؟ وعندما يأتي ذلك الوقت، هل سأكون صادقاً وأميناً؟ يا ربي يسوع المسيح ثبتني في هذه الساعة".

ولم يكن القمر قد ارتفع بمقدار كافٍ ليُنير الحلبة المظلمة والمخيفة. وكانوا يبحثون عن الجثث على ضوء مشاعل أخذوها من البوابين.

وفي هذه اللحظة سمع مارسيللوس صوتاً عميقاً من الأقبية خلفه. وكانت نبرات هذا الصوت ترن في الهواء بطريقة مميزة وتغطّي على الجلبة التي يصنعها البوابون:

[لقد جاء الخلاص الآن والقوة،
ومملكة الله إلهنا،
وقوة مسيحه،
لأنه قد طُرح المشتكي على إخوتنا،
الذي كان يشتكيهم أمام الله بالليل والنهار.
وقد غلبوه بدم الخروف،
وبكلمة شهادتهم،
ولم يحبوا حياتهم حتى الموت].

فسأل مارسيللوس:

- «مَنْ هذا؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فأجابه رفيقه:

– «ألم تعرفه؟ إنه الأخ سينّا Cinna. لقد جعلته أحزانه مجنوناً لقد أحرقوا ابنه الوحيد في الساحة في بداية الاضطهاد. ومنذ ذلك الحين وهو يتجوَّل في المدينة يُنادي عليها بالويل. وقد تركوه وحده مدة ولكن أخيراً قبضوا عليه».

– «وهل هو سجين هنا إذاً؟».

– «نعم إنه كذلك».

وارتفع صوت Cinna مرة أخرى مخيفاً ومتوعداً ومهدداً:

[كم من الزمن أيها الرب القدوس والبار
لا تنتقم لدمائنا
من الساكنين على الأرض؟]

– «إنه ذلك الرجل الذي سمعتُه في الكابيتول».

– «نعم لقد كان يسير في المدينة كلها حتى وفي القصر نفسه يردد هذا الصياح».

– «دعنا نذهب».

وحملوا أجولتهم واتجهوا نحو البوابة. وبعد تأخير قليل سُمح لهم بالخروج. وعندما صاروا خارجاً سمعوا صوت Cinna من بعيد:

[لقد سقطت بابل العظيمة، سقطت،
وأصبحت مأوىً للشيطان،
ومحرساً لكل روح نجس،
ومسكناً لكل طائر نجس ومكروه،
اخرجوا منها يا شعبي].

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولم يتكلّم أحد منهم حتى ابتعدوا مسافة معقولة من الكوليزيوم.

وقال مارسيللوس:

- «لقد أحسستُ بالخوف لئلاً يحجزونا في الداخل».

فرد عليه زميله:

- «إن إحساسك معقول لأن أية نزوة مفاجئة من الحرس قد يكون فيها القضاء علينا. ولكن يجب علينا أن نتوقع ذلك، وفي أوقات مثل هذه يجب أن نكون مستعدين للقاء الموت في أية لحظة، لأنك تذكر ما يقول المخلِّص: "كونوا أنتم أيضاً مستعدين". ويجب أن نكون قادرين عندما يأتي الوقت أن نقول مع الرسول: "إني أنا الآن مستعد أن أُسكب سكيباً"».

فرد مارسيللوس:

- «نعم ولقد أخبرنا ربنا بما سوف نُلاقي، وقال "إنه في العالم سيكون لكم ضيق". وقد قال أيضاً: "ثقوا أنا قد غلبت العالم وحيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً" (يو ١٦: ٣٣ و١٤: ٣)».

وقال مارسيللوس:

- «وبه أيضاً فإننا نكون أكثر من منتصرين فوق الموت. وآلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا».

وهكذا كانوا يُعزُّون أنفسهم، وهم سائرون، بمواعيد كلمة الحياة المباركة التي في كل الأجيال وتحت كل الظروف يمكنها أن تُعطي هذا العزاء السماوي.

وأخيراً وصلوا إلى ملجأهم بأمان، وهم حاملون أثقالهم وشكروا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الله الذي حفظهم.

بعد أيام قليلة خرج مارسيللوس في مهمة جديدة، وهذه المرة كان وحده. إذ ذهب إلى منزل رجل صديق لهم، كان يساعدهم كثيراً. وكان منزله خارج الأسوار في النواحي المجاورة لطريق آبيًّا. وبعد أن حصل منه على الإمدادات الغذائية المطلوبة، أخذ يستفسر منه عن الأخبار.

فقال له الرجل:

– «إن الأخبار سيئة بالنسبة لك. فلقد تحوَّل مؤخراً أحد ضباط الحرس الإمبراطوري إلى المسيحية. والإمبراطور ثائر جداً لأجل ذلك، وعيَّن آخر بدلاً منه في المهمة التي كان مكلَّفاً بها وأرسله خلف المسيحيين. وهم يقبضون يومياً على بعض المسيحيين. ولا ينجو أحد من القبض عليه مهما كان فقيراً أو مُعدَماً».

– «آه. وهل تعلم اسم ضابط الحرس الذي كلفوه بالبحث عن المسيحيين؟»

– «لوكيوللوس».

فصاح مارسيللوس:

– «لوكيوللوس! يا للغرابة!».

– «إنهم يقولون عنه إنه رجل ماهر ونشيط».

– «لقد سمعت عنه ... وهذه فعلاً أخبار سيئة للمسيحيين».

– «إن تحوُّل الضابط الآخر أثار الإمبراطور جداً ووضع مكافأة ثمناً لرأسه. فإذا أُتيح لك أن تراه، أو إذا رأيته في طريقك، يا صديقي، فالأفضل أن تُخبره. إنهم يقولون إنه يحيا في السراديب».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «من المؤكد أنه موجود هناك. لا يوجد مكان آخر أكثر أماناً».
– «إن هذه أوقات صعبة حقاً وأنت تحتاج أن تكون حَذِراً».

فقال مارسيللوس:
– «إنهم لا يستطيعون قتلي مرتين».
– «آه! إنكم أيها المسيحيون لكم ثبات عجيب وأنا مُعجب بشجاعتكم. ولكن أعتقد أنكم يجب أن تخضعوا ولو ظاهرياً لأوامر الإمبراطور. لماذا تندفعون هكذا بجنون إلى الموت؟»
– «إن مخلِّصنا مات لأجلنا ونحن مستعدون للموت من أجله وحيث أنه مات من أجل شعبه فنحن نود الاقتداء به. ونريد أن نبذل حياتنا من أجل إخوتنا».

ورفع الرجل يده وقال:
– «أنتم أُناس رائعون».

وودعه مارسيللوس وانصرف حاملاً حمله وكانت الأخبار التي سمعها تملأ ذهنه وأخذ يفكر: "هكذا أخذ لوكيوللوس مكاني. إنني أتساءل هل يا ترى تحوَّل ضدي؟ وهل يفكر فيَّ الآن على أنني صديقه مارسيللوس، أو على أنني إنسان مسيحي فقط؟ سوف أعرف الآن الرد سريعاً وسوف يكون شيئاً غريباً جداً أن أقع في يده. وإذا قُبض عليَّ فغالباً سيكون ذلك بواسطته.

ولكن هذا على كل حال سيكون واجبه كجندي. ولماذا أشتكي من ذلك؟ لأنه إذ قد تعين في هذه الوظيفة، فإنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يطيع. وكجندي فإنه لا يستطيع أن يعاملني إلاَّ على

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أنـي عـدو للأمـة. إنـه قـد يُشـفق علـيَّ ويحبـني في قلبـه ولكنـه لا يجـب أن يتخلـى عـن واجبـه. وإذا كـان هنـاك ثمـن موضـوع لرأسـي فـلا شـك أنهـم سـوف يضـاعفون مجهودهـم في البحـث عـني. وعلـى مـا أعتقـد فـإن وقـتي قد اقـترب فيجـب أن أستعد لملاقـاة السـاعة".

وانحـدر في طريـق آبيـا وهـو يفكـر في هـذه الأمـور، وكـان مسـتغرقاً في تأملاتـه، فلـم يـرَ جمعـاً مـن النـاس كـان متجمهـراً في ركـن الشـارع حتـى أصبـح في وسـط الجمـع. ووجـد فجـأة مَـنْ يوقفـه ويقـول لـه بصـوت خشن:

– «أيها الرفيق. علـى مهـل! مَنْ أنـت؟ وإلى أيـن أنـت ذاهـب»؟

فصـرخ مارسيللوس بلهجـة آمرة مناسبة لطبيعـة إنسـان كـان متسـلطاً على آخريـن:

– «اذهـب. ابتعـد».

وابتعد الرجـل جانبـاً، واندهـش الجمـع بطريقتـه الـتي كـان فيهـا سـلطان ولكن الرجل الـذي تكلَّـم فيهـم كـان أكـثرهم شـجاعة فقـال لمارسيللوس:

– «أخبرنا مَـنْ تكـون وإلاَّ فـإنك لـن تمـر».

فصـاح فيـه مارسيللوس:

– «أيهـا الرفيـق، ابتعـد جانبـاً. ألا تعرفـني؟ إنـي مـن الحـرس الجمهـوري الإمـبراطوري».

وعنـد سمـاع هـذا الاسـم المرعـب أفسـحت لـه الجمـوع طريقـاً وسـار مارسيللوس خلالـه. ولكنـه لم يكـد يبتعد خمس قصبـات، إلاَّ وسمـع صوتـاً يصيح متعجبـاً:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «أمسكوه! إنه مسيحي! إنه مارسيللوس».

وهاج الجمع. ولكن مارسيللوس لم يكن محتاجاً إلى تحذير آخر. فألقى بحمله، وجرى في طريق جانبي إلى نهر التيبر وانطلق كل الجمع خلفه. لقد كان سباق حياة أو موت ولكن مارسيللوس كان متدرباً على الرياضة جيداً. فازدادت المسافة اتساعاً بينه وبين مُطارديه. وأخيراً وصل إلى نهر التيبر فقفز إليه وسَبَحَ إلى الجانب الآخر.

ووصل مطاردوه إلى حافة النهر ولكنهم توقّفوا عن مطاردته أبعد من ذلك.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل العاشر

الاعتقـــــال

[«لأن امتحان إيمانكم يُنشيء صبراً.» (يع ١: ٣)]

كــان هونوريــوس يجلــس في الكنيســة الصغــيرة مــع واحــد أو اثنــين آخريـن منهـم السـيدة سيسـليا. وكـان شُـعاع خـافت مـن مشـعل واحـد يُضيء المكــان. وكـانوا حزانـى وصـامتين. وكـان يخيِّـم عليهـم حـزن أعمـق من المعتاد، وحولهم كـان صـوت وَقْـع أقـدام وجلبـة لحيـاة معتـادة.

وفجـأة سُـمع صـوت وقـع أقـدام سـريعة، ودخـل مارسـيللوس. فنهـض الجالسـون في الكنيسـة وهـم يصرخـون بصـوت الفـرح.

سألت السـيدة سيسـليا بقلـق:

– «أيـن بولليـو؟»

فقـال مارسـيللوس:

– «إنــي لم أَرَهُ».

فسـقطت السيدة سيسـليا في مقعدهـا وهـي تقـول:

– «لم تَـرَه!»

– «لماذا؟ هـل تـأخر عـن ميعـاده؟»

– «لقد كان يجب أن يحضر منذ ست ساعات وإنني مريضة قلقاً عليه».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فقال مارسيللوس محاولاً تهدئتهم:

- «لا يوجد أية خطورة عليه. إنه يستطيع أن يهتم بنفسه».

وحاول أن يبدو كما لو كان غير مهتم بالأمر ولكن نظراته القلقة أنكرت كلماته.

وقالت سيسليا:

- «لا يوجد خطورة؟!! إننا نعلم جيداً مدى الأخطار المحدقة بنا. إن الأمور لم تكن بمثل هذه الخطورة مثل الآن.

ما الذي أخَّرك يا مارسيللوس؟ لقد كدنا نيأس من مجيئك».

- «لقد أوقفوني عند طريق ألبا Via Alba. فتركت حملي وأسرعت إلى النهر وتبعتني الجموع، ولكني قفزت إلى النهر وسبحت إلى الضفة الأخرى، واتخذت طريقاً دائرياً بين الشوارع في الناحية الأخرى. وبعد ذلك عُدت مرة أخرى ورجعت سالماً إلى هنا».

- «لقد نجوتَ بأعجوبة. إن هناك ثمناً موضوعاً لعنقك».

- «هل سمعت بذلك؟»

- «نعم وأكثر من ذلك. لقد سمعنا عن المجهودات المضاعفة التي تُبذل لسحقنا، وطول اليوم تصلنا الأخبار المحزنة. يجب علينا أن نتكل أكثر فأكثر على مَنْ هو وحده قادر على إنقاذنا».

قال مارسيللوس برجاء:

- «لكننا ما زلنا نستطيع أن نضللهم».

فرد هونوريوس:

- «إنهم يراقبون المداخل الرئيسية للسراديب».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «إذاً، يمكننا أن نصنع مداخل أُخرى».

– «إن الفتحات الموجودة ليس لها عدد».

– «لقد وضعوا مكافآت عن كل الإخوة المهمين».

– «ماذا إذاً؟»

– «إننا سوف نحرس هؤلاء الإخوة بعناية أكثر من ذي قبل».

– «إن مصادر إمداداتنا تقل قليلاً قليلاً».

– «ولكن لا يزال يوجد شجعان كثيرون ومُخلصون».

– «ومَنْ يخاف أن يخاطر بحياته الآن؟»

– «إن إمدادات الغذاء لن تتوقف طالما نعيش في السراديب. لأننا إذا هربنا من الذين يُطاردوننا فإننا نُحضر الغذاء لإخوتنا، وإذا مُتنا فإننا ننال إكليل الشهادة».

– «إنك على حق يا مارسيللوس. إن إيمانك يجعلني أخجل من مخاوفي؟ لأنه كيف يخاف من الموت أولئك الذين يعيشون في هذه السراديب؟ على أية حال إنها ظُلمة وقتية وسوف تعبر. ولكن لأننا سمعنا اليوم الكثير من الأخبار المُحزنة فقد سبب ذلك لنا ضيقاً في قلوبنا وملأ نفوسنا باليأس».

واستمر هونوريوس وقال بصوت حزين:

– «يا للحزن؟ كيف أن الناس تفرَّقت والكنائس تُركت معزولة وحيدة، وقد كان هناك منذ شهور قليلة مضت خمسون اجتماعاً في المدينة حيث يُشرق نور الحق، ويصعد صوت التسابيح والصلاة إلى الأعالي. والآن طُرحنا والناس تفرَّقت وابتعدوا عن عيون الآخرين».

وتوقف قليلاً وقد غلبته عواطفه، ثم أخذ يردد في صوت خفيض

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

واضح كلمات المزمور الثمانين الحزينة:

[يا رب إله الجنود إلى متى تُدخِّن (تغضب) على صلاة شعبك؟

قد أطعمتهم خبز الدموعِ، وسقيتهم الدموع بالكيل.

جعلتنا نزاعاً عند جيراننا، وأعداؤنا يستهزئون بين أنفسهم،

يا إله الجنود أرجعنا، وأَنِرْ بوجهك فنخلُص،

كرمةً من مصر نقلت، طَرَدتَ أُمماً وغرستها.

هيأت قدَّامها فأصَّلت أصولها فملأت الأرض.

غطَّى الجبال ظلها، وأغصانها أَرز الله.

مدَّت قضبانها إلى البحر، وإلى النهر فروعها.

فلماذا هَدَمْتَ جدرانها فيقطفها كل عابري الطريق؟

يُفسدها الخنزير من الوعر، ويرعاها (يدوسها) وحش البرية.

يا إله الجنود ارجعن، اطلَّع من السماء وانظر وتعهَّد هذه الكرمة،

والغَرس الذي غَرَسَتهُ يمينُكَ، والابن الذي اخترته لنفسك.

هي محروقة بنارٍ مقطوعة. من انتهار وجهك ... يبيدون]

(مز ٨٠:٤-١٨)

فقال مارسيللوس:

- «إنك حزين يا هونوريوس. حقاً إن آلامنا قد ازدادت علينا جداً؛ ولكن في إمكاننا أن نصبح أكثر من منتصرين بذاك الذي أحبنا لأن الرب قال»:

[إن مَنْ يغلب سوف أعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي وسط فردوس الله.

كُنْ أميناً إلى الموت وسأُعطيك إكليل الحياة. ومَنْ يغلب فلن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يؤذيه الموت الثاني، وكل مَنْ يغلب سوف أُعطيه أن يأكل من المن المُخفى، وسوف أعطيه حصاة بيضاء وعليها اسم جديد مكتوب لا يعرفه إنسان آخر سوى الذي أخذه. والذي يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية سوف أعطيه سلطاناً على الأمم، وسوف أعطيه كوكب الصبح.

مَنْ يغلب سوف يلبس ثياباً بيضاء، ولن أمحو اسمه من سفر الحياة، بل سوف أعترف باسمه أمام أبي وملائكته.

ومَنْ يغلب سوف أجعله عموداً في هيكل إلهي، ولن يخرج ثانية إلى خارج، وسوف أكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أُورشليم الجديدة التي نزلت من السماء من عند ا لله، وسوف أكتب عليه اسمي الجديد. مَنْ يغلب سوف أعطيه أن يجلس في عرشي كما غلبتُ أنا وأجلس مع أبي في عرشه].

وعندما ردَّد مارسيللوس هذه الكلمات، ارتفعت قامته ولمعت عيناه وطفح وجهه بالحماس، وانتقلت مشاعره الملتهبة إلى رفاقه الذين نسوا أحزانهم للحظة عندما كانت هذه الوعود المجيدة تطرق آذانهم.

نسوا أحزانهم عندما تذكَّروا البركات العتيدة المعدَّة لهم، أورشليم الجديدة والشوارع الذهبية وأغصان المجد، وترنيمة الخروف ووجه الجالس على العرش. كانت كل هذه أمام أذهانهم.

وهنا صاح هونوريوس قائلاً:

– «يا مارسيللوس، لقد بدَّدت أحزاني بكلماتك. دعونا نرتفع عن الاهتمامات الأرضية، تعالوا يا إخوة، دعوا اهتماماتكم جانباً. لقد أخجلنا إيمان آخر أبنائنا. هلم ننظر إلى الفرح المُعدِّ أمامنا، لأننا نعلم أنه إن نُقِض

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بيت خيمتنا الأرضي فلنا بناء غير مصنوع بيدٍ، أبديٌّ في السموات».

واستمر هونوريوس في كلامه وقال:

– «إن الموت يقترب والأعداء يحاصروننا ويضيِّقون علينا الخناق جداً. فلنمُتْ، إذاً، كمسيحيين».

فتساءل مارسيللوس:

– «لماذا هذه المخاوف المرعبة؟ هل صار الموت أقرب إلينا الآن أكثر مما كان؟ ألسنا في أمان في هذه السراديب؟»

– «يبدو أنك لم تسمع ما حدث أخيراً؟»

– «ماذا حدث؟»

– «لقد قتلوا كريسبوس».

– «كريسبوس مات؟ لا! كيف؟ ومتى؟»

– «إن جنود الإمبراطور استطاعوا دخول السراديب بمساعدة مَنْ يعرف الطريق جيداً وتقدَّموا إلى الحجرة حيث كانت تُقام فيها الصلاة، وذلك في السراديب التي تحت نهر التيبر، وهرب الإخوة الموجودون بسرعة، ولكن كريسبوس المكرَّم، إما بسبب كِبَر سنه أو بسبب رغبته في الاستشهاد رفض الهروب. ركع على قدميه ورفع صوته بالصلاة وبقي معه اثنان آخران من المؤمنين. واندفع الجنود داخلاً، وحطَّموا رأسه وهو راكع على ركبتيه يصلي. وسقط ميتاً بأول ضربة، وذبحوا الاثنين الآخرين اللذين بقيا معه».

قال مارسيللوس:

– «لقد انطلقوا ليلحقوا بجيش الشهداء النبيل، لقد كانوا أمناء حتى الموت وسوف ينالون إكليل الحياة».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

والآن حدثت جلبة في الخارج وتنبَّه الجميع في لحظة. وصرخ الجميع: «الجنود!»

ولكن لم يكن هناك جنود ولكن كان أحد المسيحيين، رسول من العالم الخارجي، رسول شاحب ومُرتعب، دخل وألقى بنفسه على الأرض. وصرخ وهو يتنفس بصعوبة بالغة:

- «الويل! الويل!»

وكان لمنظر هذا الرجل تأثيرٌ سيئٌ جداً على السيدة سيسليا التي ارتدَّت إلى الخلف نحو الحائط وهي تنتفض من رأسها إلى أخمص قدميها، وضمَّت يديها، وكانت عيناها تنظران نظرات قَلِقة غريبة، وتحركت شفاهها كما لو كانت تُريد أن تقول شيئاً ولكن بدون أن تنطق بأية كلمة.

وصاح هونوريوس بالرجل:

- «تكلَّم تكلَّم أخبرنا عمَّا حدث؟»

لهث الرجل وهو يقول:

- «بولليو».

فقال مارسيللوس بحدَّة:

- «ما باله؟»

- «لقد اعتقلوه. إنه في السجن».

عندئذ سُمع صوت حشرجة مُخيفة في وسط هذه الأهوال صادرة من السيدة سيسليا، وفي اللحظة التالية سقطت على الأرض وأسرع الواقفون إلى العناية بها، وحملوها إلى مكانها الخاص، وقاموا بإنعاشها حتى أفاقت. ولكن الصدمة كانت شديدة عليها. وبالرغم من رجوع الإحساس

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

والوعي إليها، فإنها كانت تبدو كما لو كانت في حلم.

وبعد قليل استرد الرسول عافيته وأخبرهم بكل ما يعرف.

وسأله مارسيللوس:

- «لقد كان بولليو معك أليس كذلك؟»

فرد عليه:

- «لا. لقد كان بمفرده».

- «في أية مهمة؟»

- «لقد كان ذاهباً لاستطلاع الأخبار. وقد كنتُ أنا على جانب من الشارع إلى الخلف قليلاً، وكان بولليو عائداً إلى هنا وسار حتى وصل إلى جمع من الناس. ولدهشتي الشديدة أوقفوا بولليو وبدأوا يستجوبونه. لم أسمع ما دار من حوار بينهم، ولكني رأيت نظراتهم الشريرة المتوعدة، ولمحتهم من بعيد يقبضون عليه. ولم أستطع أن أفعل شيئاً. ووقفتُ على بُعدٍ كافٍ منهم وأخذت أُراقب الأمور. وفي نحو نصف ساعة حضرت فرقة من الحرس الإمبراطوري، فسلموا لهم بولليو وأخذوه معهم».

فقال مارسيللوس:

- «الحرس الإمبراطوري! وهل تعرف القائد؟»

فرد عليه:

- «نعم. إنه القائد لوكيوللوس».

فقال مارسيللوس:

- «حسناً».

واستغرق في تفكير عميق.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الحادي عشر

التقدمة

[«ليس لأحدٍ حُبٌّ أعظم من هذا أن يضع
أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو ١٥: ١٣)]

لقد كان المساء في معسكر الحرس الإمبراطوري. وكان القائد لوكيوللوس جالساً في حجرته بجوار مشعل يعطي ضوءاً باهراً حوله. وانتبه إلى صوت طَرْق على الباب، فقام لتوِّه وفتح الباب. وتقدَّم رجل في صمت إلى منتصف الحجرة ورفع عن وجهه عباءة ضخمة كان يتغطَّى بها وواجه لوكيوللوس.

– «مارسيللوس»؟!

صاح لوكيللوس في دهشة بالغة عندما رآه، واندفع إلى الأمام واحتضن الزائر بكل علامات الفرح وقال:

– «يا صديقي العزيز. إلى أية صدفة سعيدة أُعزي هذا اللقاء؟ لقد كنتُ أُفكر فيك تواً وأتساءل متى نلتقي ثانية؟»

فقال مارسيللوس حزيناً:

– «أخاف أن لا يكون لقاؤنا متيسِّراً بعد ذلك. لقد دبرت هذا اللقاء مُخاطراً بحياتي».

قال لوكيوللوس مشاركاً صديقه في حزنه:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «نعم حقاً، لأنك مُطارَد الآن، وهناك ثمن موضوع لرأسك، ولكنك هنا في أمان كما كنت في هذه الأيام السعيدة، قبل أن يَمَسَّك هذا الجنون. يا عزيزي مارسيللوس، لماذا لا تُعيد هذه الأيام ثانية؟»

- «أنا لا يمكنني تغيير طبيعتي، ولا أن أُغيِّر ما حدث معي. وأكثر من هذا يا لوكيوللوس، إنه قد يبدو لك أن نصيبي ومصيري صعب ومُرٌّ ولكني لم أكن يوماً ما سعيداً مثلما أنا الآن».

فصرخ لوكيوللوس بدهشة:

- «سعيد!!»

- «نعم يا لوكيوللوس. لأني وإن كنت مجرَّباً ولكني غير مطرود، وإن كنت مُضطهَداً فإني غير يائس».

- «إن اضطهاد الإمبراطور ليس بالأمر الهين».

- «أنا أعلم ذلك جيداً. فأنا أرى إخوتي يسقطون أمامه كل يوم، ويوماً بعد يوم تضيق الحلقة المحيطة بي. إن الأصدقاء يتركونني ولا يعودون ثانية. لأنهم يُحملون أمواتاً ويُدفنون في القبور».

- «ومع ذلك تقول إن من الممكن أن تكون سعيداً؟»

- «نعم يا لوكيوللوس، لأني أمتلك سلاماً لا يعرفه العالم، سلام ينسكب من فوق من السماء، سلام يفوق الإدراك البشري».

- «أنا أعلم يا مارسيللوس أنك شجاع جداً حتى إنك لا تخاف الموت. ولكني لم أكن أعرف أنك تملك الثبات والصبر لتتحمل بهدوء كل ما أعلم أنك ستتألم به الآن.

إن شجاعتك فوق مستوى الإنسانية. إنها شجاعة الجنون».

- «إنها تأتي من السماء يا لوكيوللوس. إن الرب يسوع المسيح

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أعظم بالنسبة لي من كل غِنَى وشرف هذا العالم. وقد كنت زمناً ما لا أحس بهذه الأمور، ولكن الآن الأشياء العتيقة قد مضت وهوذا كل شيء قد أصبح جديداً.

وإنني إذ قد تثبَّتُ بهذه القوة الجديدة فإنني أستطيع أن أتحمل أقصى الآلام والصعاب التي يمكن أن تقع عليَّ. بل إني لا أتوقع في هذه الحياة سوى الآلام، وأعلم أني عند استشهادي سوف أتألم كثيراً، ولكن هذه الأفكار لا تستطيع أن تتغلب على الإيمان القوي الذي في داخلي».

وقال لوكيوللوس:

– «إن ما يؤلمني جداً أن أراك مصمِّماً هكذا. وقد كنت أتمنى أن أرى علامة للتردد عندك، فالزمن يمكن أن يغير أو يرقِّق مشاعرك. ولكن يبدو لي أنك ثابت في طريقك الجديد».

فقال مارسيللوس بحماسة:

– «لعل الله يهبني أن أظل ثابتاً حتى النهاية ولكني لم أحضر إليك لأتكلَّم عن مشاعري، ولكني جئت طالباً معونتك، جئت أطلب عطفك ومساعدتك. لقد وعدتني يوماً بأنك سوف تُظهِرُ صداقتك لي عند احتياجي إليها وقد جئت اليوم آملاً في هذه الصداقة».

– «إن كل ما بوسعي تحت أمرك الآن فعلاً يا مارسيللوس. أخبرني ماذا تطلب؟»

– «إن عندك سجيناً».

– «نعم. إنهم كثيرون».

– «إنه غلام».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «أظن أن جنودي أمسكوا غلاماً منذ زمن قصير».

- «إن هذا الغلام ليس بذي قيمة حتى يشرِّف من يقبض عليه. وأنا جئت يا لوكيوللوس أطلب إطلاق سراحه».

- «يا للغم يا مارسيللوس، ما هذا الذي تطلبه مني؟ هل نسيت النظام الروماني الصارم في الجيش؟ أو نسيت القَسَم العسكري؟ ألا تعلم أنني لو فعلت هذا فإنني أكسر ذلك القَسَم وأجعل نفسي خائناً. إنك لو طلبت مني أن أقع على سيفي وأموت فإنني أفعل هذا باستعداد أكثر من هذا الطلب».

- «أنا لم أنسَ القسم العسكري ولا النظام يا لوكيوللوس ولكني أظن أن هذا الغلام لا يزيد عن كونه طفلاً وهو لا يُعتبر سجيناً. فهل امتدت أوامر الإمبراطور لتشمل الأطفال أيضاً؟»

- «إنه لم يجعل أي فرق في السن. ألم ترَ أطفالاً مثل هذا الصبي يُلاقون الموت في الكوليزيوم؟»

أجاب مارسيللوس بحزن:

- «نعم. رأيت».

بينما سرحت أفكاره إلى هؤلاء الفتيات اللواتي كانت ترنيمتهن عند الموت ترن في قلبه بعذوبة لا توصف.

- «هذا الغلام إذاً لا بد سيتألم؟»

- «نعم، إلاَّ إذا أنكر المسيحية».

- «وهذا ما لن يفعله أبداً».

- «إذاً، فإنه سوف يندفع إلى قَدَره. إن القانون يأمر وليس أنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بذلك يا مارسيللوس وما أنا سوى مجرد أداة فأرجوك أن لا تلومني».

– «أنا لا ألومك، فأنا أعلم جيداً كم أنت مرتبط بإطاعة الأوامر وأنك إذا تسلمت أية وظيفة فإنك تقوم بواجباتها. ولكن دعني أُقدم لك عرضاً آخر. إن تسليم المساجين غير مسموح به ولكن المبادلة ممكنة».

– «نعم».

– «إذا أخبرتك عن سجين آخر أكثر أهمية من هذا الغلام يمكنك أن تستبدله به فهل ترضى؟»

– «ولكنكم لم تأخذوا أحداً منّا سجيناً عندكم؟»

– «لا ولكن لنا سلطان على الناس الذين معنا، وهناك أُناس منهم وضع الإمبراطور مكافأة ضخمة ثمناً لرؤوسهم وللقبض على أحد هؤلاء فإنه يمكن إطلاق سراح مائة صبي مثل هذا».

فتساءل لوكيوللوس مندهشاً:

– «هل هذه عادة بين المسيحيين أن يخونوا بعضهم البعض؟»

– «لا. ولكن أحياناً يقدِّم مسيحي حياته ليفدي إنساناً آخر».

– «هذا مستحيل!»

– «إن هذا ممكن في هذه اللحظة».

– «مَنْ سيقدم نفسه بدلاً من هذا الصبي؟»

– «أنا مارسيللوس».

وعند سماع ذلك رجع لوكيوللوس إلى الخلف وصاح:

– «أنت؟»

– «نعم أنا نفسي».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «هذا مستحيل إنك تمزح».

- «أنا جاد جداً، وقد عرَّضت حياتي للخطر من أجل هذا الأمر وحضرت إليك وأظهرت اهتمامي بهذا الغلام بقبولي لهذه المخاطرة وسأوضح لك الأمر. إن هذا الغلام هو آخر مَنْ بقى من عائلة رومانية عريقة ونبيلة وهو الابن الوحيد لأمه، وأبوه مات في ساحة القتال. إنه من عائلة السرفيليين».

- «السرفيليين؟ هل أمه هي السيدة سيسليا؟»

- «نعم إنها أحد اللاجئين في السراديب. وكل حياتها وحبها منحصرَيْن في هذا الغلام. وكل يوم تتركه يخرج إلى المدينة، مع ما في ذلك من مغامرة خطيرة، وتظل تعاني في غيابه آلاماً لا تُوصف. ولكنها تخاف أن تجعله يمكث دائماً داخل السراديب خوفاً من أن يقتله هواء السراديب الرطب الشديد الضرر على الأطفال. ولذلك فهي ترضى بأن تعرِّضه لما تعتبره خطراً أقل. وهذا الغلام لديك هو سجين. وقد علمت أمه بذلك وهي ترقد الآن متأرجحة بين الحياة والموت، وإنك إذا قتلته فهي أيضاً ستموت وتنتهي بذلك واحدة من أنقى وأنبل العائلات الرومانية. ولهذا السبب جئت لأُقدم نفسي بدلاً من هذا الغلام. لأنه ماذا أكون أنا؟ إني وحيد في هذا العالم وليس هناك مَنْ يعتمد عليَّ. لا أحد يعتمد عليَّ في حياته لا في الحاضر ولا في المستقبل. وأنا لا أخاف الموت لأنه سيأتي عاجلاً أم آجلاً. ومن الأفضل أن أُقدم حياتي فداء لصديق عن أن أخسرها بدون فائدة. ولهذا السبب يا لوكيوللوس أرجوك، بالروابط المقدَّسة التي للصداقة، بشفقتك، بوعدك لي، أن تساعدني الآن، وتقبل حياتي بدلاً من هذا الغلام».

 coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ووقف لوكيوللوس على قدميه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بانفعال شديد وصاح في مارسيللوس قائلاً:

– «لماذا تجربني بقسوة هكذا يا مارسيللوس؟»

– «إن عرضي سهل أن تقبله».

– «هل نسيت أن حياتك ثمينة عندي؟»

– «لا! أرجوك أن تفكر في هذا الغلام الصغير»

– «إنني أُشفق عليك جداً، ولكن هل تظن أنني أقبل خسارة حياتك».

– «إنك ستخسر حياتي ستخسرها فعلاً، وسوف يُقبض عليَّ عاجلاً أو آجلاً وأنا أرجوك أن تقبل حياتي وهي مازالت ذات نفع».

– «إنك لن تموت طالما أستطيع أنا أن أمنع ذلك، وحياتك لن تخسرها بعد وإني أُقسم بالآلهة أنه سيكون هناك وقت طويل قبل أن تأخذ مكانك في الحلبة».

– «لا يستطيع أحد أن ينقذني إذا أمسكوني. إنك ستحاول أن تفعل كل ما تستطيع ولكن ماذا يمكنك أن تفعل لتُنقذ إنساناً واقعاً تحت غضب الإمبراطور؟»

– «إنني سوف أفعل الكثير لأمنع ذلك. وأنت لا تعلم ماذا يمكنني أن أفعل. وحتى إذا لم أستطع أن أفعل شيئاً فإنني لن أُصغي إلى هذا العرض».

– «إنني إذا ذهبت إلى الإمبراطور نفسه فإنه سيقبل طلبي».

– «إنه سيقبض عليك مباشرة ويسجنك ويسلمكما أنتما الاثنين إلى الموت».

– «يمكنني أن أُرسل رسولاً يعرض هذا».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «إن الرسالة لن تصل إليه أو على الأقل فإنها ستصل متأخرة».

تساءل مارسيللوس بحزن:

- «هل لا يوجد أي رجاء إذاً؟»

- «لا، لا يوجد أي رجاء».

- «وأنت ترفض تماماً أن تجيبني إلى طلبي؟»

- «لا يا مارسيللوس، لأنه كيف يمكنني أن أحمل ذنب موت صديقي؟ إنك لا تريد أن ترحمني، وأنا أرجوك أن تسامحني في رفض مثل هذا العرض غير المعقول».

فقال مارسيللوس:

- «لتكن إرادة الله. يجب أن أعود بسرعة ولكن كيف يمكنني أن أحمل هذه الرسالة اليائسة»؟

وتعانق الصديقان في صمت وغادر مارسيللوس المكان وقد ترك صديقه متعجباً من هذا العرض الغريب الذي عرضه عليه.

وعاد مارسيللوس إلى السراديب سالماً وتلقّاه الإخوة الذين كانوا يعلمون بالمهمة التي ذهب من أجلها بفرحة حزينة.

وكانت السيدة سيسليا ترقد في شبه إغماء وهي نصف واعية بما يدور حولها، وأحيانا يغيب عقلها. وفي أثناء ذلك كانت تتكلّم عن الأحداث السعيدة في حياتها وهي صغيرة. ولكن الحياة التي عاشتها في السراديب وتبادل الرجاء مع الخوف والفرح مع الحزن والقلق الدائم وهواء المكان المقبض، كل هذه العوامل كانت قد تغلّبت على العقل والجسم، فسحقت طبيعتها الرقيقة تحت ضغط هذه المحنة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وجاءت هذه الضربة الأخيرة العظيمة فقضت عليها ولم تستطع أن تنجو من آثارها. وكانوا في المساء يسهرون بجوار مرقدها وكانت تزداد ضعفاً ساعة بعد أخرى، وكانت الحياة تُغادر جسدها ببطء ولكن بتأكيد، ومن سيرها في طريق الموت لم يكن ممكناً ولا حتى رجوع ابنها أن ينقذها منه.

وبالرغم من أن الأفكار الأرضية غادرتها وأصبحت أحاسيسها الأرضية في منتهي الضعف، فإن الآلام التي عانتها في سنواتها الأخيرة كانت تؤثر عليها بقوة. فقد كانت شفاهها تردِّد الكلمات المقدَّسة التي كانت دائماً مُعينها وعزاءها. وكان اسم ابنها العزيز يخرج من شفتيها بالرغم من أنها لم تعد تُدرك مدى الخطر المُحدق به. ولكن كان اسم الرب يسوع المبارك هو الذي تنطقه بعمق وقوة.

وأخيراً جاءت النهاية!

فبعد فترة طويلة من السكون انفتحت عيناها، وتورَّد وجهها الضعيف الذابل، وصرخت بصوت خافت:

– «تعالَ، أيها الرب يسوع».

ومع هذه الصرخة فارقت الحياة.

ورجعت روح السيدة سيسليا الطاهرة إلى الله الذي خلقها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثاني عشر

محاكمة بولليو

[«من أفواه الأطفال والرُّضَّع هيأتَ تسبيحاً.» (مت ٢١:١٦)]

كانت هذه حجرة كبيرة في مبنى ليس بعيداً عن القصر الإمبراطوري، وكان بلاطها من الرخام اللامع، وأعمدتها التي من الرخام السماقي كانت تحمل القبة المرتفعة، وكان في أحد الأركان مذبح عليه تماثيل لآلهة وثنية، وفي الناحية الأخرى كان القضاة بأثوابهم التقليدية يجلسون على مقاعد مرتفعة، وأمامهم بعض الجنود يحرسون أحد المسجونين.

وكان هذا المسجون هو الغلام «بولليو».

كان وجهه شاحباً ولكن مظهره كان منتصباً وثابتاً، وذكاؤه الواضح الذي كان يتميَّز به دائماً لم يَخُنْهُ في ذلك الوقت. تطلَّع بعينيه الحادتين إلى كل شيء حوله، عالماً المصير المؤلم الذي سيواجهه ولكن لم يكن عنده أي أثر للخوف أو التردد.

لقد كان يعلم أن الرابطة الوحيدة التي تربطه بالأرض قد انقطعت، فقد وصلت إليه أخبار موت أمه باكراً في هذا الصباح، حملها إليه رجل كان يعلم أن هذه الأخبار ستقوِّي إيمانه! كان ذلك الرجل هو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

«مارسيللوس» وكان لتعطف لوكيوللوس صديق القائد الروماني أيضاً أنه سمح بمحاكمته. وكان تقدير مارسيللوس للأمور صحيحاً، فطالما كان بولليو يعلم أن أُمه على قيد الحياة فقد كان التفكير فيها يُضعف من تصميمه، ولكن الآن وإذ عَلِمَ أنها ماتت فقد كان هو الآخر يشتهي أيضاً أن يرحل. وكان الفتى في إيمانه البسيط يؤمن أن الموت سوف يجعله يتحد لتوّه مع أُمه الحبيبة التي كان يحبها جداً، وبهذه المشاعر كان ينتظر الفحص الذي سيُقبل عليه:

– «مَنْ أنت؟»

– «ماركوس سيرفيليوس بولليو».

– «ما عمرك؟»

– «١٣ سنة».

وعند ذِكْر اسمه، سرت همهمة من التعاطف بين المجتمعين لأن ذلك الاسم «سيرفيليوس» مشهور في روما.

– «أنت متهم بجريمة أنك مسيحي، هل عندك ما تقوله؟»

– «أنا لست مجرماً في شيء. أنا مسيحي وأنا سعيد أنني قادر أن أعترف بذلك أمام الناس!»

فقال أحد القضاة:

– «نفس الشيء معهم كلهم. كلهم لهم نفس أسلوب الكلام».

– «هل تعلم طبيعة الجريمة التي أنت متهم بها».

فرد عليه بولليو:

– «أنا لست مجرماً. إن إيماني يعلّمني أن أخاف الله، وأن أكرم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الإمبراطور، وأنا أطيع كل قانون عادل وأنا لست خائناً».

- «أن تكون مسيحياً فهذا معناه أنك خائن».

- «أنا مسيحي ولكني لست خائناً».

- «إن قانون الدولة يمنعك أن تكون مسيحياً والعقوبة هي الموت. إذا كنت مسيحياً فإنك يجب أن تموت».

فرد عليه بولليو بإصرار:

- «أنا مسيحي».

- «إذاً يجب أن تموت».

- «ليكن كذلك!»

- «هل تعلم أيها الغلام ما معنى أن تواجه الموت؟»

- «لقد رأيت الموت كثيراً خلال الأشهر القليلة الماضية وكنت أتوقع دائماً أن أبذل حياتي من أجل إلهي عندما يحين وقتي».

- «إنك صغير، أيها الصبي، ونحن نُشفق على عمرك الغض وعدم خبرتك بالحياة. ومن الواضح أنهم دربوك تدريباً خاصاً حتى أنك تُعتبر غير مسئول عن الحماقة التي تحيا فيها الآن، ولأجل هذا فإننا نرغب في أن نُفسح لك المجال.

هذه الديانة التي تفتنك لا تزيد عن كونها حماقة: أن تؤمن أن يهودياً مسكيناً صُلب منذ ٢٠٠ سنة هو الله. هل هناك حماقة أكثر من هذه؟! أما ديانتنا نحن فهي ديانة الدولة الرسمية وهي في حد ذاتها كافية لإشباع عقول الصغار والكبار الجُهَّال والعلماء. فالآن دَعْ عنك اعتقاداتك الحمقاء وعُدْ إلى ديننا القديم الحكيم».

- «لا أستطيع».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «إنك آخر سليل لعائلة نبيلة. والدولة تُدرك مركز ونُبل السِرْفيليين. إن أجدادك عاشوا في رفعة وثروة وقوة؛ وأنت تحيا كغلام فقير وتعيس وسجين. فكن حكيماً يا بولليو. فكّر في شرف ومجد أجدادك واطرح جانباً هذه العقبة الكؤود التي تحرمك من كل شهرتهم العظيمة.»

- «لا أستطيع».

- «لقد عشتَ تعيساً مطروداً، وإن أفقر شحات في روما يحيا أفضلَ منكَ ويحصل على طعامه بجهد أقل منكَ وبمذلة أقل منك، وهو يحيا في ضوء النهار، وفوق كل ذلك فإنه يحيا في أمان وحياته مِلْكٌ لنفسه وليس له حاجة أن يعيش في خوف دائم من العدالة الرومانية. ولكنك تحيا وجودك تعيساً في احتياج وخطر وظلام! ماذا أعطاك دينك الذي تفتخر به؟ ماذا فعل لك هذا اليهودي الذي تعبده؟ لا شيء، بل ربما ما هو أسوأ من لا شيء. إرجع إذاً عن هذا المضلِّل، وسوف تنال الثروة والراحة والأصدقاء وتكريم الدولة ورضا الإمبراطور».

- «لا أستطيع».

- «لقد كان أبوك مواطناً صالحاً وجندياً شجاعاً. مات في ساحة القتال دفاعاً عن وطنه، وتركك رضيعاً ووارثاً لكل أمجاده، وآخر وارث في بيته. ولكنه لم يفكر كثيراً في التأثيرات الخائنة المحيطة بك والتي قادتك إلى الضلال، إذ أن عقل أمك وقد وهن بسبب الحزن استسلم إلى التعاليم الخادعة للمعلمين الكذبة، وقد تسببت بجهلها في دمارك. لو كان أبوك قد عاش لكنت الآن أمله في امتداد أسرته

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولكانت أُمك أيضاً تبعت إيمان أجدادها المشهورين. ألا تُكرِّم ذكرى والدك؟ أليس له عليك حقوق الأُبوَّة؟

وألا ترى أنها خطية أن تجلب الهوان على الاسم العظيم الذي تحمله؟ وتلطخ السمعة الشهيرة التي انحدرت إليك من أجدادك؟

اطرح هذا الخداع الذي يعميك جانباً.

أنا استحلفك بذكرى أجدادك وبشرف عائلتك أن ترجع عن سلوكك الحالي».

- «أنا لا أُسبب لهم أي هوان. إن إيماني طاهر مقدَّس، وأنا أقبل الموت ولا أستطيع أن أُنكر مخلِّصي».

- «إنك ترى أننا رحماء عليك. إن اسمك وقلة خبرتك أثارا شفقتنا وإنك إذا كنت سجيناً عادياً فإننا كنا حكمنا عليك بكلمة واحدة وهي الإختيار بين التراجع عن المسيحية أو الموت. ولكننا نرغب في التفاهم معك لأننا لا نريد أن نرى إحدى العائلات النبيلة وهي تندثر بسبب جهل وحماقة وريث مختل».

فقال لهم بولليو:

- «إنني أشكركم لأجل تقديركم. ولكن براهينكم ليس لها وزن عندي بجانب حقوق إلهي عليَّ».

- «إنك صبي مندفع ومنعدم التفكير. وسترى برهاناً آخر ستجده أكثر قوة. إن غضب الإمبراطور مُخيف».

- «ولكن غضب الخروف أكثر رُعباً من ذلك».

- «إنك تتكلم كلاماً غير مفهوم؟ ما هو غضب الخروف هذا؟

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إنـك لا تفكـر فيمـا ستواجهه».

– «لقـد احتمـل أصدقـائي ورفـاقي كـل مـا في إمكـانكم أن تصبُّـوه عليهم من غضـب، وأنـا واثـق أن عنـدي ثباتـاً مثلهـم».

– «هـل يمكنـك أن تحمـل أهـوال حلبـة المصارعـة؟»

– «أنـا عنـدي أمـل أن أحصـل علـى مـا هـو أعظـم مـن القـوة البشـرية المائتـة».

– «هـل تستطيع أن تواجـه الأُسـود المتوحشـة والنمـور الـتي سـوف تهجـم عليـك؟»

– «إن ذاك الذي أثـق فيـه لـن يهملـني في ساعة احتيـاجي إليـه».

– «إنـك واثـق في ذاتـك، إذاً».

– «أنا أثـق في ذاك الـذي أَحبـني وأَسلم نفسـه لأجلـي».

– «وهـل فكَّـرت في المـوت حرقـاً بالنـار؟ هـل أنـت مسـتعد لملاقـاة ألسنة اللهـب في السـاحة؟»

– «إذا كـان يجب أن أحتمـل فـإنني لـن أرتـد، وهـي علـى أي حـال ستمضي وسأبقى أنـا بعـد ذلـك مـع الـرب إلى الأبـد!»

– «لقـد استولى عليـك التطرُّف والأوهـام. وأنـت لا تُـدرك تمامـاً مـاذا ينتظـرك. لأنـه مـن السـهل أن يواجـه الإنسـان التهديـد. ومـن السـهل أن ينطـق الإنسـان بكلمـات وتصـاريح شـجاعة، ولكـن مـاذا يكـون الأمـر معك عندمـا تواجـه الحقيقـة المرعبـة؟»

– «سوف أنظـر إلى مَـنْ لا يـترك مَـنْ هـم لـه في سـاعة إحتيـاجهم».

– «إنه لم يصنـع لـك شيئاً حتـى الآن».

– «لقـد صنـع لي كـل شـيء. لقـد بـذل حياتـه لكـي أحيـا. وبـه نلـت حياة أَسْمَى من هـذه الحيـاة الـتي تأخذونهـا مـني».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «إن هذا مجرد وهم. كيف يستطيع يهودي مسكين أن يصنع هذا؟»

- «إن فيه حلَّ ملءُ اللاهوت، الله ظهر في الجسد. ولقد عانى موت الجسد لكي ننال نحن حياة الروح».

- «ألا يوجد شيء يستطيع أن يفتح عينيك؟ ألا يكفيك أن إيمانك المجنون هذا لم يجلب لك شيئاً سوى البؤس والويل. هل يجب أن تظل متمسكاً به؟ عندما تجد أن الموت حتمي، أفَلاَ يجعلك هذا ترتد عن أخطائك؟»

- «إنه سيعطيني قوة أغلب بها الموت. أنا لا أخاف الموت. إني أنظر إلى الموت على أنه انتقال من حياة الحزن هذه إلى الحياة في النعيم الدائم، وسواء مُتُّ بواسطة الوحوش أو النار، فالأمر واحد لأن الرب سيعينني على البقاء أميناً إلى النهاية، وسوف يعضدني ويقود روحي مباشرة إلى الحياة الأبدية في السماء. والموت الذي تهددونني به ليس له أية رهبة عندي، ولكن الحياة التي تدعونني إلى العيش فيها، هي مُرعبة لنفسي أكثر من الموت ألف مرة».

- «إننا نُعطيك آخر فرصة أيها الفتى المتهور. توقف لحظة واحدة عن حماقتك، وانسَ للحظةٍ واحدةٍ المشورات الرديئة لمعلميك المتطرفين، وفكِّر في كل ما قلناه لك.إن الحياة أمامك، الحياة المملوءة بالفرح والبهجة، حياة غنية بكل الخيرات. والمجد والأصدقاء والثروة والقوة، كلها لك، واسم نبيل وممتلكات أسرتك كلها تنتظرك. كل هذا لك. ولكي تحصل عليها ليس عليك سوى أن تأخذ هذه الكأس وتسكب الخمر التي فيها على هذا المذبح القريب.خُذها. إن هذا عملٌ بسيط.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

اعمله بسرعة؛ وانقذ نفسك من الموت والعذاب الشديد».

وتسمرت كل العيون على بولليو عندما عرضوا عليه هذا الأمر الأخير ولكن الدهشة ملأت أذهان المتفرجين إذ وجدوه لم يتحرك البتة، ولم يستطيعوا أن يقبلوا هذا الأمر أبداً. إذ حتى هذا الطلب الأخير البسيط لم يكن له أي أثر على الصبي!

ووقف بولليو بوجهه الشاحب، ولكن بإرادة ثابتة أزاح الكأس جانباً وقال:

- «أنا لن أُنكر مخلِّصي أبداً».

وعندما قال بولليو هذا، ساد صمت للحظة، صاح بعدها رئيس القضاة:

- «لقد نطقتَ بالهلاك على نفسك. أطردوه من هنا».

قال هذا مُخاطباً الجنود.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الثالث عشر

استشهاد بولليو

[«كُن أميناً إلى الموت فسأُعطيك إكليل الحياة.» (رؤ ٢: ١٠)]

كان الحُكم على بولليو سريعاً ومؤكداً فقد كان سيُقام في اليوم التالي استعراض في الكوليزيوم. وكان مزدحماً كالعادة حتى أعلى المدرجات بجموع الرومانيين المتعطشة للدماء. وسارت الأمور في نفس التتابع المقيت للأهوال بالطريقة المعهودة.

تصارع المصارعون وذبحوا أحدهم الآخر إما فرادى أو جماعات. وكان يُعرض هناك كل أنواع المصارعات المألوفة في الحلبة. وطبعاً كانت أكثر المصارعات تفضيلاً لدى المشاهدين هي المصارعات الدموية.

ومرة ثانية تكرر نفس مناظر الدم والألم والعذاب. وبطل هذا اليوم قصير العمر ها هو ينال تهليل الجماهير. ومرة ثانية يُقاتل الإنسان الإنسان، أو يدخل في مصارعة أقوى مع أحد النمور. ومرة ثانية ينظر المصارعون المجروحون في يأسٍ طلباً للرحمة، ولكنهم لا يرون إلاَّ أصبع المتفرجين المقلوبة إلى أسفل، إشارة الموت بدون رحمة.

وشهوة المتفرجين التي لا تشبع من الدماء تتطلب الآن مناظر أكثر

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

للذبح؛ فقد فقدت المصارعة جاذبيتها من رجال لهم نفس القوة وكان معروفاً أن هناك جماعة من المسيحيين محفوظون إلى نهاية العرض.

والآن، أخذت الجماهير تُطالب بظهور هؤلاء بدون صبر.

ووقف لوكيوللوس بين الحرس بقرب كرسي الإمبراطور وكان يبدو عليه التفكير العميق وقد فارقه مرحه المعتاد.

وهناك، في المقاعد العالية في الخلف كان يجلس وجه شاحب جامد، وكان مميَّزاً بين كل مَنْ هم حوله بسبب نظراته القلقة المركَّزة على الحلبة.

وكان يرتسم على صاحب هذا الوجه تعبير قلق بالغ جعله مختلفاً جد الاختلاف عن كل الموجودين حوله في داخل هذا المكان.

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت البوابات الضخمة الخشن واندفع نمر إلى داخل الحلبة، وكان يهز رأسه ويحرِّك ذيله، ومشى وهو يتطلَّع بعيون نارية إلى هذا التجمُّع الضخم من الناس.

وسرعان ما ارتفعت همهمة بين الجمهور، وإذا بهم يدفعون إلى داخل الحلبة بغلام ذي وجه شاحب وجسم نحيل، كان منظره الرقيق كلا شيء بجانب حجم الوحش الهائج الضخم. وفي سخرية بالغة كانوا يُلبسونه ملابس مثل أحد المصارعين!

ولكن بالرغم من صغر سنه وضعفه، لم يكن على وجهه أو سلوكه ما يفضح عن أي خوف، فإن نظراته كانت هادئة ومجرَّدة. ومشى بهدوء إلى منتصف الحلبة.

وهناك وعلى مرأى من الجميع ضمَّ ذراعيه ورفع عينيه إلى فوق

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وأخذ يصلّي، وبعد قليل تحرك النمر دائرياً كما من قبل، لقد رأى الغلام ولكن لم يبدُ عليه أي تأثير. لقد استمر ماشياً رافعاً عينيه الدمويتين نحو الحوائط العالية وكان يزأر زئيراً وحشياً عالياً.

وكان ذاك الرجل ذو الوجه الصارم الحزين ينظر إلى المشهد الذي ملك عليه كل نفسه وكل روحه.

وكان يبدو أنه لا يوجد عند النمر رغبة لمهاجمة الصبي الذي استمر في صلاته.

أمَّا الجماهير فقد أصبحت قلقة وليس لديها صبر، فأخذوا يصيحون ويصرخون محاولين أن يثيروا النمر ويستحثوه لمهاجمة الصبي.

ولكن الآن في وسط هذه الحلبة، يأتي صوت عميق ومُخيف:

[حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض].

ساد السكون العميق بعد هذه الكلمات، ونظر كل واحد بدهشة إلى رفيقه، ولكن قطع السكون نفس الصوت الذي أخذ يرن بتأكيد مروِّع:

[انظروا! إنه سيأتي على السحاب
وستراه كل عين
والذين طعنوه
وتنوح عليه كل قبائل الأرض
نعم هكذا! آمين.
إنك بارٌّ أيها الرب،
الكائن والذي كان والذي سيكون،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لأنك حكمت هكذا.
لأنهم سفكوا دماء قديسين وأنبياء
وأنت أعطيتهم دماءً ليشربوا
لأنهم مستحقون.
نعم هكذا أيها الرب الإله القدير
حقٌّ وعادلةٌ هي أحكامك!]

وتصاعدت الآن الصيحات والصراخ في كل مكان وعرفوا مصدر هذه الجلبة:

ـ «إنه مسيحي ملعونٌ إنه سنّا المهووس. لقد سجنوه أربعة أيام بدون طعام».

ـ «أحضروه إلى هنا».

ـ «ألقوه إلى النمر».

وارتفع صراخهم وصياحهم إلى السماء واختلط في هدير واحد عالٍ، وقفز النمر في اهتياج.

ولما سمع البوابون صياح الجماهير وهديرهم أسرعوا لإجابة طلبهم.

وحالاً رُفعت البوابات ودفعوا بالضحية إلى الداخل، وكانوا قد أجاعوه بطريقة رهيبة، وكان يبدو كشبح باهت. وتقدَّم إلى الأمام بخطوات مترنحة، ولكن عينيه كانتا تلمعان ببريق غير أرضي واندفع الدم إلى وجهه وصار شعره المهمل الطويل ولحيته كتلة واحدة، ورآه النمر وسار إليه، وزأر الوحش الهائج وهو على مقربة منه. فقام الصبي من على ركبتيه وأخذ يتطلّع المنظر.

ولكن سنّا لم يَرَ النمر، لقد ثبَّت عينيه على الجمع وهزَّ يده النحيلة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إلى فوق وصرخ بنفس النبرة السابقة:

[الويل! الويل! الويل لساكني الأرض].

وغرق صوته في دمه، لقد قفز النمر قفزته وسقط سنًّا وانتهى كل شيء!

واستدار النمر نحو الصبي وقد أثار الدم شهوته الوحشية جداً. وانتصب شعره، وعيناه تُطلقان الشرر، وذيله يهتز بعصبية. وقف أمام ضحيته، ورأى الغلام أن النهاية قد أتت. فسقط ثانية على ركبتيه. وغرقت الجموع في صمت رهيب وهي تتطلع بقلق عميق جداً إلى منظر الذبح.

وقف الرجل الذي كان يحملق في الحلبة وهو مازال مستغرقاً في المنظر الذي أمامه أسفل وارتفعت أصوات عالية من خلفه وأخذت تتزايد:

– «اجلس! اجلس! اجلس أنت تحجب عنا الرؤية!»

ولكن الرجل إما أنه لم يسمع أو أنه لم يهتم!

فازدادت الجلبة جداً حتى إن الضبَّاط التفتوا إلى خلف ليروا مصدر الضوضاء، وكان لوكيوللوس واحداً منهم، وعندما استدار رأى المنظر كله فأصبح وجهه شاحباً مثل الموت. وصرخ:

– «مارسيللوس!!»

وللحظة إرتد إلى الخلف ولكنه استعاد نفسه وأسرع إلى مكان الجلبة.

ولكن الآن ارتفعت همهمة بين الجماهير، لأن النمر الذي كان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يسير حول الصبي صار في اهتياج عظيم وأخذ يزمجر، واستعد ليقفز قفزته المميتة.

ووقف الصبي وكان نور سيرافيمي ملائكي ينضح على وجهه، وكانت عيناه تلمعان بلمعان سماوي.

لم يعد يَرى الحلبة ولا الحوائط العالية المحيطة بها ولا المقاعد المتراصة ولا الوجوه العديدة، لم يعد يرى العيون العديمة الشفقة للمتفرجين القساة ولا حجم الوحش العملاق، بل كان يبدو كأن روحه قد حلّقت ودخلت إلى الأبواب الذهبية لأورشليم الجديدة، وكان يبدو كما لو أن مجد نور النهار الجديد في السماء، غير المنطوق به، يشعُّ على مُحيَّاه.

– «أُمَّاه. إني آتٍ إليكِ. يا ربي يسوع المسيح إقبل إليك روحي».

ورنت الكلمات بوضوح وحلاوة في آذان الجموع ... وساد الصمت.

وقفز النمر قفزته، وفي اللحظة التالية لم يكن يوجد شيء سوى كتلة تُقاوم وقد اختفت خلف سحابة من التراب!

انتهت المقاومة ورجع النمر إلى الخلف. وأصبح الرمل محمراً بالدم. وعلى الرمال كانت توجد بقايا مشوهة لبولليو الصادق القلب والنبيل.

وفي وسط الصمت الذي تبع ذلك، إذا بصراخ أزعج كلَّ من في الحلبة:

[أين شوكتكَ يا موتُ؟ أين غَلَبتكِ يا هاوية؟
شكراً لله الذي أعطانا النصرة بربنا يسوع المسيح!]

ووقف آلاف الرجال وانفجروا بالغضب والاحتقار، وامتدت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عشرة آلاف يد نحو هذا الدخيل الجريء:

– «مسيحي»! «مسيحي»! – «القوه في النار» – «ألقوه إلى النمر» – «أنزلوه إلى الحلبة».

كانت هذه هي الصرخات التي ردَّت على صرخته.

ووصل لوكيوللوس في الوقت المناسب لكي ينقذ مارسيللوس من جموع الرومانيين الغاضبة التي كادت أن تمزقه إرباً.

لم يكن النمر الذي في الحلبة أقوى من هذه الجموع أو أكثر دموية منهم.

اندفع لوكيوللوس بينهم ودفع الجموع إلى اليمين وإلى اليسار كحارس وسط وحوش مفترسة، أما الجموع فقد أذهلتهم رتبة لوكيوللوس فرجعوا إلى الوراء واقترب الجنود فدَفع مارسيللوس إليهم، وقاد الجماعة إلى خارج الكولسيزيوم.

وفي الخارج أخذ هو مهمة الإهتمام بالسجين بنفسه، وتبعه الجنود.

– «يا للحزن يا مارسيللوس. هل حسناً أن تخسر حياتك هكذا»؟

– «لقد نطقتُ من وحي اللحظة. هذا الصبي الذي أُحبه مات أمام عينيَّ فلم أستطع أن أُمسك زمام نفسي. ولكن لا أعتذر لأني أنا نفسي مستعد أن أضع حياتي لأجل مليكي وإلهي».

– «أنا لا أستطيع أن أُجادلك فأنت أبعد عن أن أُقنعك».

– «أنا لم أكن أريد أن أفضح نفسي ولكن بما أن هذا قد حدث، فإني مكتفٍ وسعيد وأنا أفرح أن يكون نصيبي أن أتألم من أجل مخلِّصي».

– «يا للحزن يا صديقي. هل لا تهتم للحياة؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «أنا أحب مخلِّصي أكثر من محبتي للحياة».

وهمس لوكيوللوس إلى مارسيللوس صديقه القديم قائلاً:

- «أُنظر إن الطريق مفتوح أمامنا وأنا أعلم أنك تستطيع الجري بسرعة. فالآن، اهربْ، وانْجُ بنفسك».

وكان الجنود على بُعد قصبتين منهما، وكانت الفرصة متاحة أمام مارسيللوس للهروب، ولكن مارسيللوس ضغط على يد صديقه برفق وقال له:

- «لا يا لوكيوللوس، أنا لا أرضى بالحياة على حساب شرفك، أنا أُحب هذا القلب الذي يطلب مني ذلك، ولكني لن أدعك تدخل في متاعب بسبب صداقتك لي».

فتأوَّه لوكيوللوس ومشى صامتاً.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الرابع عشر

التجـربة

[«أُعطيك هذه جميعها إن خَررَتَ وسجدت لي.» (مت ٤:٩)]

في تلك الليلة بقي لوكيوللوس في حجرته مع صديقه. وحاول بكل طريقة أن يهز صموده وصلابته وعناده وتصميمه. واستعان بكل ما من شأنه أن يحرك مشاعر الإنسان. لم يترك أية طريقة لإغرائه، ولكن كان كل هذا عبثاً. لقد كان إيمان مارسيللوس ثابتاً جداً. لقد كان إيمانه مؤسساً على صخر الدهور، فلم تستطع عواصف التهديدات الشديدة ولا مشاعر الصداقة أن تُضعف من صلابته.

قال مارسيللوس:

– «لا، لقد صممت على طريقي هذا وقد قرَّ اختياري بذلك. فلتأتِ الأهوال والأتعاب ولكني يجب أن أسير فيه حتى النهاية. أنا عارف بكل ما سألاقيه. ولقد قدَّرت كل عواقب تصرفاتي، وبالرغم من كل هذا فإنني سوف أُكمِّل ما بدأته».

فقال له لوكيوللوس:

– «إنني أطلب منك شيئاً صغيراً. أنا لا أطلب منك أن تترك هذه الديانة إلى الأبد، ولكن أن تتركها في الوقت الحاضر. إن اضطهاداً

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عنيفاً يلتهب الآن ويسقط أمام عنفه الجميع، سواء الكبار أو الصغار، العظماء أو البسطاء. وأنت ترى أنهم لا يحترمون لا المركز الاجتماعي ولا السن. فهل أمكن إنقاذ بولليو؟ مع أن ذلك كان ممكناً، فقد كان هناك تعاطف شديد معه لأنه كان صغيراً ومن الصعب أن نعتبره مسئولاً عن أخطائه بخلاف أنه كان نبيلاً بل وآخر سلالة إحدى العائلات العريقة. ولكنك رأيت أن القانون كان متصلباً وقد عانى هو الموت من جراء ذلك. وسنّا Cinna أيضاً كان يجب أن لا يُلتفت إليه لأنه لم يكن أكثر أو أقل من إنسان مجنون. ولكن الحقد على المسيحيين كان شديداً حتى إن جنونه الواضح لم يكن سبباً في نجاته على أي حال».

- «أنا أعلم هذا كله جيداً. إن رئيس الظلمة يقاوم كنيسة الله ولكن هذه الكنيسة مؤسسة على الصخر، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. لقد رأيت أنا نفسي الصالح والطاهر والنبيل والقديس والبريء كلهم يتألمون. وهل تظنني أجهل ذلك أنه لا رحمة على المسيحيين؟ لقد عرفت هذا جيداً منذ زمن بعيد وكنت دائماً مستعداً لما سوف يحدث منذ عرفت يسوع المسيح ربي ومخلصي».

- «اسمعني يا مارسيللوس، لقد قلت لك إنني أطلب منك شيئاً صغيراً جداً. ليس من الضروري أن تترك هذا الدين الذي تُقدِّره هكذا. احتفظ به إن كان يجب هذا. ولكن اعمل حساباً للظروف الحالية. وحيث أن العاصفة تعصف الآن فإننا يجب أن ننحني أمامها. تصرَّف بطريقة رجل حكيم وليس كإنسان متطرف مجنون».

- «وما هو ذلك الشيء الذي تريدني أن أفعله»؟

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- «هذا هو ما أطلبه منك. سوف يحدث بعد مرور سنوات قليلة أن يتغيَّر الوضع فإما أن يتوقف الاضطهاد أو يحدث أي رد فعل له أو إن إمبراطوراً جديداً وحُكّاماً آخرين يتولون الحكم، وآنذاك سيصبح من الأمان أن يكون المرء مسيحياً. وهؤلاء الناس المضطهدون والمطرودون الآن قد يخرجون من الأماكن التي كانوا يختفون فيها لكي يعودوا إلى مراكزهم القديمة ويتبوأوا أعلى مراكز الشرف والثروة. فكِّر في ذلك ولا تضحي بحياة قد تكون نافعة للدولة وسعيدة لنفسك. احفظها من أجل ذاتك. انظر حولك الآن وقدِّر هذه الأمور جيداً. اترك ديانتك لزمن قليل وعُدْ إلى ديانة الدولة. إن ذلك لن يكون سوى لوقت قليل. وبذلك تنجو من الخطر الحالي. وعندما تأتي أوقات سلامية فأنت تستطيع أن تعود وتصبح مسيحياً مرة أخرى».

- «إن هذا غير ممكن يا لوكيوللوس. إن هذا مُفزع لنفسي جداً. ما هذا؟ هل أصبح كذّاباً ومُنافقاً هكذا؟ إنك لو علمت ما حدث في داخل نفسي ما طلبتَ مني أن تحيا نفسي الخالدة بالكذب على الله والعالم. من الأفضل أن أموت بأقسى العذابات عن أن أفعل هذا».

- «إنك تتمسك بهذه الأفكار المتطرفة حتى إني يئست من إمكانية إنقاذك. ألا تنظر إلى هذه الأمور بتعقل أبداً. إن هذا ليس كذباً ولكن سياسة، وليس نفاقاً ولكن حكمة».

- «الله لا يسمح بأن أفعل ذلك وأُخطيء إليه».

- «اسمعني أيضاً. إنك إن فعلت هذا فلن تنفع نفسك وحدك ولكن الآخرين أيضاً. هؤلاء المسيحيون الذين تحبهم سيكون في إمكانك أن تعينهم ليكونوا أفضل مما هم فيه الآن. وأنت تعلم أن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المسيحيين في وضعهم الحالي لن يمكنهم أن يعيشوا إلاَّ بتعاطف ومساعدة هؤلاء الذين يعترفون بديانة الدولة مع أنهم في السر يفضلون الديانة المسيحية، فهل تسمِّي أصدقاءكم هؤلاء بأنهم منافقون وحانثون باليمين؟ أليسوا هم بالحري أصحاب الفضل عليكم؟»

– «إن هؤلاء الناس لم يتعلموا بعد الإيمان المسيحي والرجاء المبارك كما تعلمته أنا. ولم يعرفوا الميلاد الجديد ولا الطبيعة الجديدة وحلول الروح القدس المستمر وشركة الاتحاد مع ابن الله الحي كما عرفت أنا. إنهم لم يعرفوا محبة الله التي تنبع في القلب وتُعطي الإنسان أحاسيس جديدة وآمالاً ورجاء. وبالنسبة إليهم، فإن التعاطف مع المسيحيين ومساعدتهم عمل صالح. ولكن المسيحي الوضيع الذي يُنكر إيمانه ومخلِّصه الذي فداه لن يجد في نفسه الخائنة الرغبة الصادقة في أن يساعد إخوته المنسيين والمطرودين».

– «يا مارسيللوس، أنا عندي عرض أخير أقدمه لك وسوف أذهب بعد ذلك، وهذا آخر أمل، وأنا لا أعرف إذا كان هذا ممكناً أم لا، ولكن سوف أحاول، وهذا إذا حصلت فقط على موافقتك. وهذا هو العرض: أنت لست محتاجاً أن تُنكر إيمانك ولا أن تضحي للآلهة الوثنية. أنت لا تحتاج إلى أن تصنع أي شيء من الأمور التي ترفضها ولكن افعل هذا الأمر. إنْسَ الماضي وعُد ثانية ولو حتى من وراء بقلبك، أي بمظهرك الخارجي، إلى ما كنت عليه من قبل. ارجع كما كنت جندياً مرحاً فرح القلب يقوم بواجباته. ولا تشارك في أي واجبات دينية ولا تذهب إلى المعابد، بل امضِ وقتك كله في المعسكر ولتكن عبادتك خصوصية وفي السر. ولتَبْدُ وكأنك تُلمُّ بواجباتك في

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كتب الفلاسفة وليس من الكهنة. كن هكذا ثانية وارجع إلى حياتك الأُولى. اظهر ثانية في المجتمعات بمصاحبتي. واشترك مرة ثانية في محادثات لطيفة وكرِّس نفسك ثانية لاهتماماتك الأُولى. سيكون هذا سهلاً ومُمتعاً ولن يتطلب ذلك منك أي شيء فيه هوان أو أي شيء غير مستطاع وسوف تغضّ السلطات الطرف عن غيابك وعن سلوكك الخاطئ. وإذا كانوا لا يرغبون في السماح لك بالحصول على كل رتبتك الأُولى فإنك على الأقل يمكن أن تبقى في مركزك القديم في فرقتك، وسوف تصير كل الأمور حسنة بعد ذلك. ولن يُطلب منك سوى أمر بسيط وهو صمت حكيم وعودة إلى واجباتك الأُولى. وإذا بقيت هنا في روما فسوف يظن الجميع أن أخبار تحولك إلى المسيحية أخبارٌ كاذبة، وإذا سافرت إلى الخارج فلن يعرف أحد عنك شيئاً».

- «لا يا لوكيوللوس، لأني حتى إذا قبلت هذه الخطة التي تعرضها فإن ذلك لن يكون ممكناً لعدة أسباب: أولها؛ إن هناك إعلانات عُلقت من أجلي ومكافآت وُضِعَتْ ثمناً لحياتي. وآخر الكل ظهوري في الكوليزيوم أمام الإمبراطور نفسه. وهذا وحده كافٍ لإضاعة أي أمل في العفو والغفران. والأهم من ذلك أنني أنا لا أستطيع أن أقبل هذا لأن مخلِّصي لا يمكن عبادته بهذه الطريقة. لأن أتباعه يجب أن يعترفوا به صراحة. وهو قد قال: "كل مَنْ اعترف بي قدَّام الناس يَعتَرفُ بهِ ابن الإنسان قدَّام ملائكة الله" (لو ١٢: ٦). فأن أُنكره في حياتي أو مظهري الخارجي فهذا هو نفس الشيء أن أُنكره بالطريقة السابقة التي ذكرها الرب، وهذا ما لا أستطيع أن أفعله. أنا أُحب من أَحبني أولاً وبَذَلَ نفسه عني، وفرحتي العظمى هي في أن أعلن اسمه أمام الناس وأن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أموت لأجله فهذا أنبل عمل يمكن أن أقوم به، وإكليل الشهادة هو أعظم مكافأة لي».

ولم يتكلم لوكيوللوس أكثر من هذا، فقد وجد أن كل محاولاته لإقناع مارسيللوس غير مجدية. وقطعا باقي الوقت في الكلام في أمور أخرى.

ولم يضيِّع مارسيللوس هذه الساعات الأخيرة الثمينة التي قضاها مع صديقه، لأنه إذ قد امتلأ قلبه بالشكر لهذه المشاعر النبيلة ولهذا التعاطف الصادق الذي أبداه صديقه، فإنه أراد أن يكافئه بأن يجعله يتعرَّف على أعظم كنز ممكن أن يمتلكه الإنسان: **كنز الإيمان بالمسيح.**

وأنصت إليه لوكيوللوس بصبر، وذلك بسبب الصداقة أكثر منه بسبب اهتمامه بالأمر، ولكن على أي حال فإن بعضاً من كلمات مارسيللوس انطبعت على ذاكرته.

وفي اليوم التالي تمَّت محاكمة مارسيللوس وكانت قصيرة ومقتضبة.

ولم يهتز مارسيللوس واستمع إلى الحكم بالإدانة بهدوء وكان ميعاد تنفيذ الحكم هو بعد ظهر ذلك اليوم. كان عليه أن يواجه الموت ليس بالحيوانات المتوحشة ولا على أيدي المصارعين ولكن بالعذاب المروع الذي للموت حرقاً بالنار. وكان ذلك في نفس المكان الذي شهد فيه كثير من المسيحيين للحق. وهناك ختم مارسيللوس إيمانه بحياته.

وُضِعَتْ المنصة في منتصف الكوليزيوم، ووضعوا حولها حِزَماً عالية من الخشب، ودخل مارسيللوس يقتاده الحرَّاس الغلاظ الذين أضافوا الضربات والاحتقار إلى ما سيُلاقيه من أهوال. وتطلع حوله إلى الدائرة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الضخمة من الوجوه، وجوه الرجال والنساء، وجوه قاسية، جامدة ليس فيها أي نوع من الشفقة، ونظر إلى الحلبة وتفكّر في الآلاف من المسيحيين الذين سبقوه في الآلام وانتقلوا من هنا ليلحقوا بجيش الشهداء الذين يقفون حول العرش إلى الأبد، وتفكّر في الأطفال الذين شاهد موتهم هنا واستعاد ترنيمتهم المنتصرة:

إلى مَنْ أحبنا   وغسلنا من خطايانا

وأمسكه الحراس بقسوة وقادوه إلى المنصة حيث ربطوه بسلاسل قوية حتى إن الهرب منها كان مستحيلاً.

فتمتم بشفتيه:

- «إني أنا الآن مستعد أن أُسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر وأخيراً وُضِعَ لي إكليل البر الذي يهبه لي الرب العادل في هذا اليوم».

وأشعلوا النار. واختفى الشهيد للحظة عن الأعين خلف سحابة من الدخان الأسود الكثيف. وعندما انقشع الدخان ظهر الشهيد واقفاً وسط النار وعيناه مرفوعتان إلى فوق. ويداه مضمومتان للصلاة.

وازداد اللهب حوله وأخذ يقترب منه أكثر فأكثر، ويلتهم حُزَم الخشب، ويحيطه بدائرة من النار، وغطته سحابة من الدخان الأسود، واندفعت النار إلى الداخل وألسنتها الحادة تلحس ما أمامها.

ولكن الشهيد وقف ثابتاً هادئاً وسط هذه الأهوال، وسط هذا العذاب المهول، ملتصقاً بمخلِّصه. لقد كان الرب هنا وإن كانوا لم يروه، وكانت ذراعه الأبدية تحيط بتابعه المُخلِص، وروحه كانت تُلهم روح الشهيد.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وازداد اللهب اقتراباً، والحياة في الجسد تقاوم بعنف، وترتعش في مسكنها، ويهتز مسكنها بشدة، والروح تستعد للانطلاق في طريقها إلى فردوس الراحة.

وأخيراً، أخذ جسد الشهيد ينقبض، كما لو كانت نبضات من الألم الهائل تسري فيه، ولكنه قهر الألم بمجهود رهيب ورفع ذراعيه إلى العلاء وحرّكها بضعف.

وفي آخر جهد للطبيعة المائتة صرخ بصوت مرتفع:

- «**النصر**»!

وبدا مع هذه الصرخة أن الحياة قد غادرته لأنه سقط إلى الأمام في وسط ألسنة اللهب المندفعة.

وانطلقت روح مارسيللوس إلى السماء لتكون مع المسيح وذاك أفضل جداً (في ١: ٢٣).

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الفصل الخامس عشر

لوكيوللوس

[«ذكرى الصديق هي للبركة.» (مت ٤:٩)]

وعند منظر التعذيب والموت هذا، كان هناك متفرِّج واحد وقد كسا الألم والحزن وجهه، ولم يتحول نظره أبداً عن مارسيللوس. بل كانت عيناه تراقبان كل ما يحدث وكل تعبير يظهر على الوجوه، واستمعت أُذناه إلى كل كلمة. وبعدما غادر الجميع المكان بقي هو وحده، كان هو الإنسان الوحيد وسط كل هذه المقاعد المهجورة. وبعد مدة طويلة نهض ومضى.

وفقدت خطواته مرونتها الأُولى وكان يتحرَّك بضعف وبطء وكانت نظراته المجرَّدة وتعبير الألم على وجهه يجعلانه يُشبه إنساناً قد ضربه المرض حديثاً. وسار نحو أحد الحراس الذي فتح له البوابات التي تقود إلى الحلبة.

وقال للحارس:

– «احضر لي وعاءً لحفظ بقايا موتى الحرق».

وسار إلى جذوة النار التي خمدت.

وكان كل ما بقي من مارسيللوس عبارة عن بقايا عظام مُحترقة طحنتها قوة النيران. وفي صمت أخذ لوكيوللوس الوعاء الذي أحضره

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الحارس وجمع كل ما يمكنه جمعه من البقايا، وحمل معه الرماد.

وعندما كان يغادر المكان فوجيء برجل عجوز يتقدَّم نحوه، فوقف بطريقة آلية وسأله:

– «ماذا تريد مني؟»

– «أنا هونوريوس شيخ من المسيحيين. وقد مات لي صديق عزيز هذا اليوم في هذا المكان وقد حضرت لأرى هل يمكنني الحصول على رماد جثته؟»

قال لوكيوللوس:

– «جيد أنك عرَّفتني بنفسك أيها الرجل المكرَّم، لأنك إذا قلت اسمك للآخرين فإنهم سيقبضون عليك بدون شك لأن هناك مكافأة موضوعة ثمناً لرأسك. ولكني لا أستطيع أن أجيبك إلى طلبك. فقد مات مارسيللوس، ورماده معي في هذا الوعاء وسوف أدفنها في مقبرة عائلتي بأعظم الاحتفالات، لأنه كان صديقي العزيز. وفقدانه جعل الحياة بالنسبة لي بلا طعم وثقيلة».

فقال هونوريوس:

– «أنت إذاً لا يمكن أن تكون إلاَّ لوكيوللوس الذي كنت أسمعه دائماً يذكرك بكلمات المحبة».

– «نعم أنا هو. لم يكن هناك صديقان وفيَّان أكثر منَّا. وإذا كان الأمر في وسعي لكنتُ أنقذتُه. ولم يكن سيُقبض عليه لو لم يُلقِ بنفسه في يد القانون.

يا للقدر المؤلم! ففي الوقت الذي كنت أصنع الترتيبات لكيلا يُقبض عليه فإذ به يتراءى أمام الإمبراطور نفسه وأُجبرت أنا بيدي هذه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أن أقبض على مَنْ أُحبه وأقوده إلى السجن والموت».

– «إن ما تعتبره خسارة بالنسبة إليك إنما هو ربح عظيم له. لقد دخل إلى ميراث السعادة الخالدة».

قال لوكيوللوس:

– «لقد كان موته انتصاراً. لقد لاحظت موت المسيحيين من قبل، ولكن لم يجذب انتباهي رجاؤهم وثباتهم مثل هذه المرة. لقد مات مارسيللوس كما لو كان الموت بالنسبة إليه بركة فائقة».

– «لقد كان الأمر فعلاً هكذا بالنسبة له. ولكن ليس هذا بكثير على الكثيرين من الذين دُفِنُوا في الأماكن المُظلمة حيث أُجبرنا على اللجوء للحياة هناك. وأنا أود أن أُضيف إلى عددهم رفات مارسيللوس. فهل لا ترغب في تركها لي؟»

– «لقد كُنت آمل، أيها المكرَّم هونوريوس، أنه بما أن صديقي العزيز قد فارقني فلا أقل من أن أحصل على هذه البهجة الحزينة، وهي أن أُقدِّم لبقاياه التكريم وأن أبكي عند قبره».

– «ولكن، أيها النبيل لوكيوللوس، هلاّ تظن أن صديقك قد يفضِّل أن يُدفن باحتفال بسيط يُناسب دينه الجديد، ويرتاح بين إخوته الشهداء الذين كُتب اسمه بينهم إلى الأبد».

صمت لوكيوللوس وفكَّر لبعض الوقت وأخيراً قال:

– «لا يوجد شك بالنسبة لرغبته، وأنا أحترمها، وأحرم نفسي من أداء واجبات دفنه. خُذْ هذه هي بقاياه يا هونوريوس. ولكني على أي حال سوف أشترك في تشييعها معكم، فهل تسمحون للجندي الذي تعرفونه أنه عدوكم أن يدخل حيث تلجأون وأن يُتابع صلواتكم؟»

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

– «إنك تأتي على الرحب والسعة، أيها العزيز لوكيوللوس، كما حضر مارسيللوس من قبل، وربما تنال بيننا نفس النعمة التي نالها صديقك».

قال لوكيوللوس:

– «لا تأمل في هذا، لأني جَدّ مختلف عن مارسيللوس في أفكاره ومشاعره. وقد أتعلَّم أن أُشفق عليكم أو قد أُعجب بكم، ولكن لا يمكن أن أتعلَّم أبداً أن أكون منكم».

– «تعالَ معنا كيفما تكون. واحضر جنازة صديقك. وسوف أرسل لكَ رسولاً غداً».

أظهر لوكيوللوس موافقته. وبعدما سلَّم الوعاء الثمين إلى هونوريوس، مضى حزيناً إلى منزله.

وفي اليوم التالي، ذهب مع الرسول إلى السراديب، وهناك رأى المجتمع المسيحي وعاين مكان إقامتهم. لقد كان عنده تصوٌّر واضح عن حياتهم وآلامهم والضيقات التي يحتملونها من وصف صديقه السابق له.

وارتفع صوت النحيب الحزين في الأَقبية المُظلمة، وتردَّد صداه في الممرات. هذا النحيب الذي يُعلن أن أحد الإخوة يُسجَّى في قبرهِ، ولكن صوت النحيب هذا الذي كان يعبِّر عن أحزان الموت، تبعه صوت ألحان سماوية كانت تعلن إيمان هذه الأرواح المشتاقة إلى السماء ورجاءً ممتلئاً رغبة في لقاء الرب الحبيب.

وأخذ هونوريوس الدرج الثمين، كلمة الحياة، والتي كانت مواعيدها راسخة جداً تصمد ضد أثقل أتعاب وأحزان الحياة. وفي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

نبرات مَهيبة، قرأ هذا الجزء من رسالة كورنثوس الأُولى الذي كان ومازال دائماً في كل الأجيال وكل الأوقات عزيزاً على قلب كل مَنْ يتطلع من وراء عالم الزمان ليبحث عن الراحة في القيامة العتيدة.

ثم رفع رأسه بنبرات حارة، وصلَّى إلى الواحد القدوس الذي في السماء، بابنه يسوع المسيح الوسيط الإلهي، الذي قهر الموت والهاوية وأنار لنا الحياة والخلود.

وكان وجه لوكيوللوس الحزين الشاحب متميزاً بين هؤلاء الحزانى. وبالرغم من أنه ليس مسيحياً فإنه كان مُعجباً بهذه التعاليم العظيمة وكان ينصت باهتمام إلى هذا الرجاء العظيم. ووضع بيده البقايا المحبوبة لصديقه الشهيد في مكان راحتها الأخير. وكان هو الذي ألقى آخر نظرة على هذه البقايا العزيزة، والذي وضع بيديه اللوحة التي كان اسم وشاهد مارسيللوس محفوراً عليها.

وعاد لوكيوللوس إلى منزله. ولكنه كان قد أصبح إنساناً آخر، وبدا كما لو أن مرح طبيعته قد فارقه بسبب الآلام المرة التي عاينها.

وقد قال إنه لن يصبح مسيحياً. وكان موت صديقه قد ملأ قلبه بالحزن ولكن لم يكن هذا حزناً على الخطية ولا حزناً للتوبة أو للرغبة في معرفة الحق والله الحي، ولكنه فقد القدرة على التمتُّع بالعالم وفي نفس الوقت، لم يحصل على نبع آخر للسعادة.

وكان الأثر الوحيد الذي تركته ذكرى صديقه هو إحساسه بتعاطف مع هؤلاء المساكين والمعذَّبين الذين كان مارسيللوس شريكاً لهم. وكان مُعجباً بثباتهم مُشفقاً على آلامهم الرهيبة. وأدرك أن كل الفضيلة والصلاح اللذين بقيا في روما إنما هي في حوزة هؤلاء المطاريد المساكين.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وهذه المشاعر أدت به إلى تقديم المساعدة لهم. ونقل إليهم مشاعر الصداقة والوعد بالمساعدة اللذين أعطاهما مرة لصديقه مارسيللوس. فلم يكن جنوده يقبضون على أحد منهم. وإذا قبضوا على أحد فكان هروبه مؤكداً، وكان مركزه العظيم وثروته الواسعة وتأثيره كلها في خدمة المسيحيين. وأصبح قصره معروفاً لهم كمكان أمين يلتجأون إليه طلباً للمعونة. وبالتالي كانوا يكرِّمون اسمه كأعظم صديق لهم في الإنسانية.

ولكن لكل شيء نهاية. وهكذا فإن الآلام التي عاناها المسيحيون، وصداقة لوكيوللوس لهم وصلا إلى النهاية. فبعد حوالي سنة من استشهاد مارسيللوس عُزل الإمبراطور ديسيوس (عام ٢٥١م.)، وتسلَّط إمبراطور آخر، وتوقف الاضطهاد وعاد السلام للجماعات المسيحية. وخرج المسيحيون من السراديب ثانية ليحيوا في نور النهار المُبهج. ومرة ثانية نادوا في آذان الناس بالتسابيح لذاك الذي فداهم، وواصلوا جهادهم الدائم ضد قوات الظلمة.

ومضت السنون ولم يتغير لوكيوللوس. وعندما خرج هونوريوس من السراديب أخذه لوكيوللوس إلى قصره وعاش هناك إلى نهاية حياته.

وأراد هونوريوس أن يرد الجميل إلى صديقه المُحسن النبيل وذلك بأن يجعله يتعرَّف على الحق ولكنه مات بدون أن يرى تحقيق رغبته.

ولكن البركة جاءت أخيراً. وذلك بعد سنوات عديدة. فبعد فترة طويلة من وصوله إلى نضج الرجولة وعلى حافة الشيخوخة، افتقد المخلِّص لوكيوللوس، الذي كان العالم لسنوات عدة قد فَقَد بالنسبة له

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كل متعة بل إن الثروة والمجد والقوة لم تَعُدْ لها قيمة عنده. وكأن حياته قد اصطبغت بحزن لا يمكن أن يداويه شيء. ولكن روح الله افتقده أخيراً، وبقدرته الإلهية استطاع أن يجعل لوكيوللوس يفرح بمحبة المخلِّص الذي كان قد رأى رؤى العيان براهين واضحة عديدة على سلطانه على قلوب البشر.

ومرت قرون عديدة على مدينة القياصرة منذ اضطهاد ديسيوس الذي طرد أتباع الرب يسوع المساكين إلى الحياة في السراديب المظلمة. فتعال نتطلَّع إلى طريق أبيا ونُلقي نظرة هناك.

أمامنا صف المقابر الطويل الذي يصل حتى حدود المدينة القديمة. هنا حيث وجد رجال روما العظام مكاناً للراحة. وحملوا إلى قبورهم كل مظاهر ثروتهم ومجدهم وقوتهم. وتحت أقدامنا تحت الأرض توجد المقابر الخشنة لهؤلاء الذين طُردوا من على وجه الأرض وكأنهم غير مستحقين لتنسُّم هواء السماء.

ولكن الآن، يا للتغيير الذي حدث! فإننا نرى الخراب قد حل بمقابر عظماء روما وقد انتُهِكَت حُرمتها وتحطَّمت أبوابها، وترابها ذهب مع الريح. وأسماء معظم المدفونين فيها صارت غير معروفة، والإمبراطورية التي كانوا يمجدونها قد اندثرت، وفرق الجنود التي كانوا يقودونها في طريق النصر قد رقدت كلها رقاداً لا قيام منه.

ولكن تذكار هؤلاء المضطهدين الذين يرقدون أسفل، تنظر إليه كنيسة الله على الأرض بكل خشوع. ومقابرهم أصبحت مزارات يحج إليها الناس. والعمل الذي شاركوا فيه بنصيب نبيل، سلَّموه إلينا لنكمِّله حتى مجيء الرب يسوع.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وهـؤلاء وإن كـانوا متواضعـين ومُحتَقريـن ومطروديـن ومتضـايقين وغـير مشهورين لكي يُكتبـوا في كُتـب التـاريخ، ولكننـا نعلـم تماماً أن أسماءهم قـد كُتبت في سفر الحياة، وشركتهم سوف تكون مـع هـؤلاء الذين كُتب عنهم أنهم:

[هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة
وقد غسَّلوا ثيابهم
وبيَّضوا ثيابهم في دم الخروف.
من أجل ذلك هم أمام عرش الله
ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله.
والجالس على العرش يحلُّ فوقهم،
لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد،
ولا تقع عليهم الشمس ولا شيءٌ من الحر
لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم
ويقتادهم إلى ينابيع ماءٍ حية
ويمسح الله كل دمعةٍ من عيونهم].

(راجع رؤ ٧: ١٤-١٧)

- النهاية -

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

صدر من مجموعة

مقالات سبق نشرها في مجلة مرقس

✠✠✠

مجموعة قصص مسيحية للحياة (للأب متى المسكين):

- قصص مسيحية للحياة (مجلد)
- سفراء من العالم الاخر
- في زقاق المسيحيين
- استشهاد الرسولين بطرس وبولس
- النيروز وذكرى ايام الشهداء
- أيقونة جميلة
- قصة استشهاد مؤثرة للغاية
- قصة طهارة و استشهاد بارع
- أولوجيوس والمقعد الرذيل
- تاييس امرأة الاساطير

مجموعة قصص مسيحية من واقع الحياة:

- المحبة تُدخلنا أمام الله
- الإيمان والمعجزات
- إيمان الطفولة العجيب
- إني مستعد أن أموت ثانية
- كيف عدت الى الله
- قارع الناقوس
- تعال أيها الرب يسوع
- والدة الإله تأتي لإستقبال مريض
- ليلة عيد ميلاد في أوكرانيا
- الليلة العظيمة
- جمعة آلام وعيد قيامة
- ضيف ليلة عيد الميلاد

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- قداس في غرفة الإعدام
- صغير لكنه جميل
- آلام الكنيسة طريق انتصارها
- مغتصبو الملكوت
- مولودون من جديد
- المصالحة مع الله
- شهود وشهداء
- فنانون للمسيح - قصص من واقع الحياة
- فرح القيامة في أشد الضيقات
- اعترافات سجين تائب
- رسالة الميلاد
- إيمان طفلة
- طبيب شاب صار شهيداً
- شهيد السراديب

مقالات وأبحاث مسلسلة ومترجمة:

- شخصية الكاهن
- العظة على الجبل وشروحاتها عند الآباء
- الصلاة الربانية وشروحاتها عند الآباء
- الروح القدس وحياة النسك عند القديس مقاريوس
- التبني في المسيح يسوع في فكر الآباء
- الكنيسة جسد المسيح في تعليم القديس كيرلس الكبير
- التجسد والميلاد في تعليم آباء الكنيسة
- تربية الأطفال عند القديس يوحنا ذهبي الفم
- أصول الأبوة الروحية
- المسيح في صومه وصلاته من أجلنا
- المسيح في حياته المقدسة
- وجودنا وكياننا في المسيح
- العهد القديم كما عرفته مدرسة الإسكندرية

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

- الكنيسة بيت ميلادنا الجديد
- دعوة الإنسان العليا
- المحبة في المفهوم المسيحي
- تدبير الخلاص في تعليم القديس أثناسيوس الرسولي
- الخلاص الثمين
- المسيح المخلِّص في تعليم القديس أثناسيوس الرسولي
- شركة المحبة في الكنيسة - الرؤية النسكية لآباء البرية
- الله الطبيب الشافي
- الألم والموت ربح لنا
- المرض والعلاج والطبيب
- المغفرة والمصالحة
- الصلاة في مزامير داود
- دراسات في آباء الكنيسة
- الأصول الأرثوذكسية الآبائية لكتابات الأب متى المسكين - ١
- الأصول الأرثوذكسية الآبائية لكتابات الأب متى المسكين - ٢

قديسو برية شيهيت:

- القديسان المقاران
- القديس يؤانس القصير
- التسعة والأربعون شهيداً

شرح أسفار العهد القديم:

- شرح سفر التكوين - سفر البدايات
- شرح سفر الخروج
- شرح سفر اللاويين
- شرح سفر العدد

سير قديسات:

- القديسة بيلاجية
- القديسة مريم المصرية
- القديسة كاترينة
- القديسة مونيكا أم القديس أوغسطينوس

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يُطلب من:
دار مجلة مـــــرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

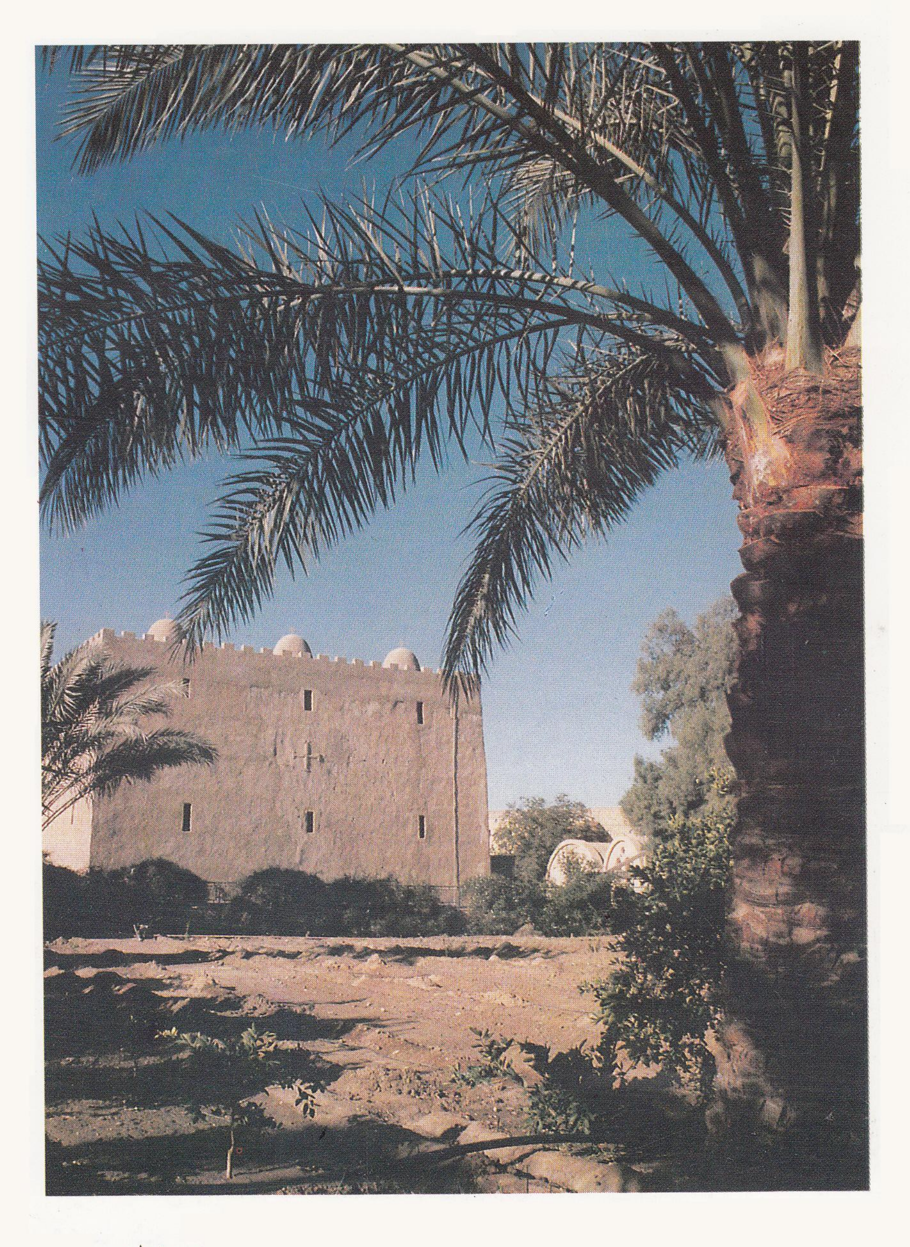
صورة ظهر الغلاف

الحصن

الواجهة الشرقية للحصن بدير القديس أنبا مقار الذي بناه الإمبراطور زينون في القرن الخامس ليحتمي فيه الرهبان من غزوات وغارات البربر. ولكن مع ذلك أَبَى ٤٩ من شيوخ برية شيهيت النجاة وفضّلوا أن يستشهدوا مثل آبائهم الشهداء.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



coptic-books.blogspot.com